حوار الطرشان

مجموعة قصصية ل..

بركات الساير العنزي

العنوان: حوار الطرشان
الصنف: مجموعة قصصية
المؤلف: بركات الساير العنزي
إعــداد: م. هالة محمود
مراجعة: تمت بمعرفة الكاتب
تصميم غلاف: أ. عادل التوني
مقاسات الكتاب: ١٤*٢١
عدد صفحات الكتاب: ١٢٤
طبعة أولى: ٢٠١٩
الناشر: النوارس للدعاية والنشر
رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية: ٢٠١٩/٥٤٣٨

الإسكندرية ش ٤٥- ميامي ج.م.ع
ت: ٠١٢١١٩٩٩٠٨٩ ٠٣/٥٤٩٠٩١١
Elnwares.advertising@gmail.com
للتواصل على فيس بوك
/https://www.facebook.com/groups/322676661399274

لا يسمح بطباعة هذا الكتاب أو تصويره أو نسخه بأي طريقة ورقية أو إلكترونية إلا بإذن خطي ومسبق من المؤلف..

الكاتب في سطور..

في أسرة متوسطة نشأت، وترعرعت في مدينة دير الزور، على فيض الفرات، وجسرها الجميل الأثري وعطر الزيزفون، وأريج الياسمين.
تعود نشأتي الثقافية لأمي حافظة القرآن رحمها الله، التي كانت تدفع بنا لنهل العلم وحب القرآن، علمتني القرآن قبل أن أدخل المدرسة الابتدائية.. حصلت على شهادتي الثانوية العلمي، والأدبي، من ثانوية الرشيد في الرقة.تخرجت من جامعة حلب من كلية الآداب - قسم اللغة العربية - عام ١٩٨٢ .
لمدينتي الرقة أثر كبير في نفسي، تنفست من هوائها العذب. ومرحت على شطآن الفرات، وللرقة سحر تاريخي. المشهورة بأسوارها التاريخية، مدينة هارون الرشيد، حيث كانت يقضي صيفه فيها، ومشتى عبد الملك بن مروان في الرصافة.
عملت مدرسا في مدارس الرقة، ومديرا لثانوية الرشيد في المدينة، قمت بتدريس اللغة العربية في الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية أربع سنوات، ثم وقعت عقدا مع وزارة التربية في الكويت عام١٩٩٥ودرست في ثانويتها حتى عام٢٠١٧ .
أصدرت مجموعتي القصصية الأولى في الكويت (الحلم).. عشقت القلم والحرف، والكتابة الهادفة المفيدة. وأحمد الله وأشكره على نعمه وعطائه .

ولدي الشهيد مروان :

وتبقى الكلمات عاجزة أن توافيك حقك، لقد ملكت قلوب جميع محبيك، بأخلاقك وطيبة نفسك حيث كنت المثل الأول في عائلتك، الولد البار بأمه وأبيه، الأخ الحنون مع أخوته وأخواته.. زرعت القيم الكريمة في النفوس . كنت كبيرا في حياتك، وكبيرا في استشهادك. هكذا هم الطيبون يرحلون ويتركون قلوبا متعلقة بهم.. تذكرهم في كل حين .لا يمكن أن أنساك أبدا فأنت فلذة كبدي وقطعة من عمري، وبكري الأول. أسكن الله روحك ومن معك في جناته ونعيمه، ولتخلد روحك عند بارئها بأمان وسلام، رحم الله أرواحا تعلقنا بهم وسكنوا مهجنا، رحمة الله عليكم .

إهداء

أهدي المجموعة القصصية الثانية "حوار الطرشان"..

إلى أرواح الغوالي.. إلى أرواح من عاشوا كراما،واستشهدوا أعزاء رافعين رؤوسهم بشموخ، أقف أمام أرواحكم بخشوع.. كنتم تفرحون لكل ما أكتب، مددتم لي من أرواحكم مدادا لقلمي، مهما كتبت، تعجز الكلمات عن التعبير، ستبقون ذاكرة في نفوس محبيكم، ذاكرة عطرة تتوارثها أجيال أسرتنا العريقة بنسبها وأصلها. ستغرد أرواحكم عالية عند ربها العزيز المقتدر. أسكنكم الله في جناته ونعيمه، وعفر لكم وكتبكم مع الشهداء والصديقين...

أبكيكم.. وقد سجمت العين عبرة
وحق لعيني الحزن والبكاء
أبكيكم بدمع سخي مدر
تنوء بحمله الأرزاء
احتفت بكم أرض وكنتم
تحتفون بأهل الأرض إذا جاؤوا
طويتم من العمر صفحة
وتركتم في قلوب المحبين
شجا ليس له داء
يا أهل الطيب فيكم سخاء
مالي أكتم لوعة أصابت القلب
وحزنت عليكم الجوزاء
خلت الدار من أحبة
والتاع عليهم القلب والدار
رحلتم وغابت عن بيوتنا الأنوار
وناب عن طيب سلامكم تذكار

المقدمة

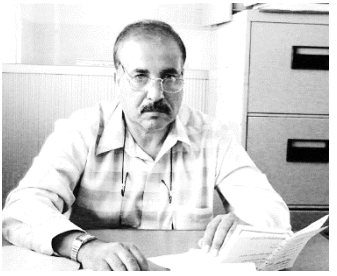

الحمد لله رب العالمين، وأشكره على نعمه وآلائه، وأستعين به وأستهديه. والصلاة والسلام على رسول الله محمد النبي الأمين، وعلى آله وأصحابه الأخيار.. قد تكون الحياة سرورا ومرحا، أو لهوا ولعبا أو هما وحزنا، أو أخذا وعطاء وقد أمرنا الله أن نبني الكون بالعطاء. وخير العطاء غذاء العقول."كل ما أريد معرفته موجود في الكتب" كم تشدني هذه العبارة للكتب. وقد أخذ الكتاب جزءا من حياتي ووقتي.. وكم أشتاق للأيام السابقة، عندما كنت أصرف مما أدخره في شراء الكتب، التهم الكتاب مرة ومرات وأشعر بالنشوة وقد قرأت للكاتب المشهور أو الكتاب المعروف .

كان الكتاب خير صديق للإنسان، بل هو خير جليس كما قال الشاعر:

أعز مكان في الدنا سرج سابح وخير جليس في الأنام كتاب

وجدت القصة خير مجال للتعبير عن النفس، والتعبير عن هموم الآخرين . قد أسمع قصة من هناك، أو أقرأ خبرا من هنا، فأصوغ ما يدور في خاطري وما يعبر عن هموم الآخرين.. إنه الجهد الثاني بعد المجموعة القصصية الأولى **"الحلم"** وقد طبعتها في الكويت، وقد سميت هذه المجموعة ب**"حوار الطرشان"**. لما يدور في واقعنا المؤلم.. أوهب عطائي لفلذات الأكباد، ولأحبابي، ولكل من أحبه وأوده . طالبا الأجر من الله العلي القدير وأن يوفقني إلى المزيد من العطاء .

بركات لافي الساير العنزي

الخطيئة

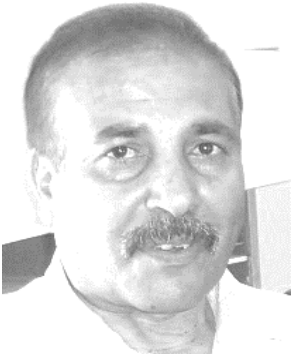

تلمست فاطمة بطنها وأخذت نفسا عميقا، وقد بدا عليها الإعياء والتعب، وقد تدلت بطنها هذه المرة للأمام، ومن ينظر إليها يظن أنها تحمل ثلاثة توائم، وقد طمأنها الدكتور منذ بداية الحمل أن في بطنها مولودا واحدا، وقد رجح لها في الشهر الأخير أن المولود على الأغلب سيكون أنثى، فرحت بقول الطبيب، فقد كانت أمنيتها أن تلد فتاة جميلة تكون خليلة لها في حياتها، ثم توجهت نحو زوجها معتز وقالت:

- أشعر بالحمل ثقيلا في بطني، يكاد يكسر ظهري وجسمي النحيل لا يتحمل مشاق الحمل ومتاعبه .
- هوني على نفسك يا أم نضال، أياما قليلة، وستلدين عروسا جميلة إن شاء الله، لأني أريد ابنة لي وأختا لنضال وياسر وسعد. مالك تكثرين من الآهات والشكوى؟ اصبري، لقد أوجعت رأسي بحملك.
- نعم أنتم الرجال لا تشعرون بآلام الحمل، ولا تتحملون آلام المرآة، آه لو تحملون مرة واحدة في العمر لعرفتم قيمة المرأة، خاصة أنت.. اللهم أكمل حملي بالخير وجنبني متاعبه، يقولون: الحمل الثقيل يتعب الأم في الكبر!

ضحك معتز، وتلمس بطنها بحنان وقال:

- ستلدين إن شاء الله أغرودة البيت، وسأسميها أغاريد، ولا تسمعي لأقوال الناس .

تعلق قلب معتز كثيرا بابنته أغاريد، وكما يقولون كانت أغاريد آخر العنقود، حرص الأبوان على غمر ابنتهما بالحنان الزائد والدلال المفرط أحيانا .

الحب الزائد من الوالدين، عرضهما لنقد كثير ومحرج من قبل الأقارب والمعارف، وقد تحملا على مضض بعض التعليقات من الأقارب والأولاد. أما أغاريد فقد استولت على الجمال الأخاذ، وبراءة الطفولة، ومحبة الوالدين.

عندما كبرت أغاريد تعودت على التصرف بحرية فوق حدود المعتاد لمحيط الأسرة، والمجتمع المحيط بها، كانت كالحمامة التي تغرد خارج سربها. تشعر بكبرياء وصل حد الغرور مما أفقدها الأصدقاء في المدرسة والأسرة، ويتجنبها أغلب المعارف فقد كانت وقحة في بعض الأحيان .

شبت أغاريد بسرعة أمام ناظر والديها، وكم تمنى والدها لو بقيت صغيرة ترافقه في كل مكان!، يحس بجمال طفولتها، لكن أغاريد اليوم كبرت وأصبحت محط الأنظار،ازدادت جمالا وطولا، وتورد خداها وأصبحت كثيرة الاهتمام بنفسها، تقف أمام المرآة طويلا، وتنظر إلى نفسها عند الدخول والخروج، تنهرها أمها أحيانا برفق، وفي مرات كثيرة تستعمل معها الشدة. معجبة يشعرها المسترسل على أكتافها، تلمس خصلات شعرها الأسود كأنه قطعة من الليل، وتنسف خصلات من الشعر تتدلى على جبينها، ثم تبتسم ابتسامة ماكرة.

- أغاريد، أغاريد ألا يكفي وقوفك الطويل أمام المرآة؟، ادخلي

المطبخ وقومي بعملك، قللي من اهتمامك بالمرآة، وتسريح الشعر.

(صاحت بها الأم وهي تخرج من المطبخ)

- عندما تريد أغاريد الخروج تغير لباسها عدة مرات، وتسبب الإرباك لأخوتها وأمها، لأنها تؤخرهم عن الموعد دائما. ولكنهم يلتمسون لها العذر، لأناقتها وحبها للمظهر الجميل. هذا الثوب غير ملائم للزيارة، وهذا الثوب رداؤه طويل، وهذا شكله غير مناسب، حتى الخياطة أصبحت تحتار في ذوق أغاريد لا تعرف ما الذي يرضيها ؟.
- يا أم نضال، كلمني أخي محمد أمس بخصوص أغاريد، يريد أغاريد لابنه المهندس محمود، ما رأيك في الموضوع؟
- الرأي رأيها يا أبا نضال .
- هذا صحيح، لكنك تعرفين أني أعطيت أخي كلمة، ولا أستطيع إغضاب أخي.. كلميها يا أم نضال، لنرى رأيها فخير ستر للبنت هو الزواج .
- سأكلمها غدا الخميس ـ إن شاء الله ـ عندما تعود من الجامعة مع أخيها من حلب. ولكن أحس أن أغاريد لا ترغب به، وقد لاحظت تصرفاتها معه، وأنت تعرف شخصية ابن أخيك المزعزعة، وقلة الثقة بنفسه، صحيح أنه مهندس كهرباء وموظف في الحكومة، ولكنه تيار غير مكهرب.

حدثت الأم ابنتها في الموضوع وأبدت الفتاة رغبتها وعدم معارضتها لرأي والديها، وتركت الأمر لهما لأنهما أكثر دراية بمصلحتها، سر الأبوان لطاعة ابنتهما، ستكون قريبة منهما، وابن عمها ليس غريبا عليها.

تم عقد القران بحضور الأقارب والأهل والأصحاب وقد غمر الفرح قلوب الجميع إلا أغاريد التي كانت ترقب عيون الجميع، وتتصنع

ابتسامة صفراء، لم يعرف سر الابتسامة إلا أمها التي كانت تتخوف من تصرف أرعن لها يخجلها أمام الناس.. انتهت السهرة على خير وقد حمدت الأم الله، فقد كانت السهرة رائعة وجميلة بشهود الجميع. وقد حرصت أم نضال أن تظهر كل زينة ابنتها أمام الناس، لتدلل على مكانة أغاريد في الأسرة .

سافرت أغاريد إلى حلب لتكمل دراستها في الجامعة، ولكنها لم تكن مسرورة من عقد قرانها فقد كانت تخفي أشياء كثيرة في نفسها لم تستطع الأم أن تفك رموز اللغز رغم ذكائها الشديد .

كانت أغاريد على علاقة مع طالب يدرس معها في الجامعة في قسم اللغة الإنكليزية، وقد توطدت هذه العلاقة بمرور السنوات الأربع التي أمضتها في الجامعة، لكن صديقها لم يكن متحمسا للزواج، كان يريد بناء علاقة مع فتاة جميلة وغنية يستفيد من مالها وجمالها فقط، ولم يكن يرغب في الزواج والارتباط في الوقت الحاضر، حاورته مرارا وتكرارا ولكنه لم يقتنع بالزواج والارتباط في الظروف الراهنة، أدركت تحايل صديقها عليها، أرادت تحريك عواطفه قبل الخطبة التقت به في مطعم الجامعة وقالت له:

- اسمع يا وليد، لقد أخبرتني أمي أمس، وقالت لي: إن ابن عمي المهندس محمود يريد الزواج مني، وليس معقولا أن انتظرك مدة أطول، مضى على تعارفنا أربع سنوات ولم تعلن حتى الخطوبة.. ما رأيك في الموضوع ؟

- انتفض وليد غاضبا وقد امتقع وجهه غضبا واصفر، وأجاب بانفعال شديد:

- وما يمنعك من ذلك؟ اذهبي وتزوجيه.

ضرب الكرسي الذي أمامه وخرج منصرفا وقد أثار انتباه الجميع.

خجلت أغاريد من الموقف وطأطأت رأسها ثم حملت محفظتها وخرجت

من صالة المطعم والكسوف يغطي وجهها.

تندمت أغاريد على كل لحظة قضتها مع وليد منذ أن عرفته قبل أربع سنوات، لقد خدعها طيلة السنوات الماضية، وأدركت أن حبه كان حب مصلحة، كان يستفيد من مالها، ويتفاخر بجمالها أمام أصدقائه، مر شريط ذكرياته أما عينيها كسحابة الصيف العابرة، شعرت كأن سهما اخترق قلبها وجرح كبرياءها، أحست بالحاجة إلى البكاء ولكنها تمالكت نفسها وأوقفت سيارة لتوصلها إلى المنزل.

دخلت البيت بعصبية وجدت أخاها في المنزل، فبادرها بالسؤال:

- ما بك يا أغـاريد؟ شكلك غير طبيعي. هل تحسين بشـيء؟ هل أزعجك أحد؟

كان يحبها حبا كبيرا .

- لا يا سعد، فقط أشعر بصداع برأسي .

ارتمت على سريرها، ولكنها لم تستطع النوم، ولكنها قررت في نفسها أن تقبل بالزواج من ابن عمها محمود، على الرغم من كرهها له، لم تستطع في يوم من الأيام أن تملأ قلبها ولو بالقليل من الحب له، وكان يتودد إليها كثيرا ولكنها تقرف منه، وقد نبهها والدها مرات عديدة على تصرفها السيء اتجاه ابن عمها عندما كان يزور بيتهم.

لم يكن محمود ذا شخصية جذابة فقد كان طويلا أجعد الشعر قليل الاهتمام بنفسه، لا يحسن الجدال أو الكلام، كثير الضحك لأقل سبب، لا يحسن أي عمل سوى الدراسة حيث نجح بها كمهندس، فأعطته الدراسة مكانة أمام الآخرين، وجد الجرأة ليخطب ابنة عمه، وهو يدرك في نفسه أنها لا ترغب به .

قارنت أغاريد بين محمود ووليد، وجدت الفرق شاسعا ولهذا تعلقت بوليد ولكن الأخير كان محتالا لا يرغب في الزواج في الوقت الحاضر، يريد تمضية الوقت .

وجدت أغاريد نفسها كالذبيحة التي تساق إلى المذبح، لبست ثوب العرس وقد أحاط بها الأقارب والأهل من كل مكان، صوت الموسيقا والمطرب والجمهور يكاد يصم أذنيها فكرت في الهروب من منصة الحفل، ولكن عقلها حذرها من التصرف الأهوج، اندمج الحضور مع المطرب وتمايلوا مع الموسيقا الشرقية، والعتابات العراقية، نظرت إلى جانبها فوجدت عريسها وقد فتح فمه حتى بدا آخر حلقه، أرادت أن تأخذ حذاءها وتسد فمه، ضحكت للخاطرة السريعة الشيطانية التي روادتها فضحكت حتى بدت أسنانها اللؤلؤية فظن محمود أنها مسرورة، فضحك بصوت مرتفع وراح يهز يده على زغاريد أمه. أغمضت العروس عينيها وتخيلت وليد مكان العريس، فانفرجت أساريرها وابتسمت ابتسامة عريضة وحملت يدها لتشبك يد وليد، فرح العريس وكأن الدنيا لا تسع لفرحه ولكنها سحبت يدها بعنف عندما استيقظت من نومها، وقد بدا ذلك للجميع.
بعد سنة من زواج أغاريد ومحمود، لم يتلاءم الزوجان مع بعضهما البعض، في كل يوم تزداد أغاريد كرها لمحمود، تكثر من السفر إلى حلب بحجة الدراسة والاستعداد للامتحان، تقدم محمود بطلب عمل للسعودية وقد جاءته الموافقة واستعد للسفر ، كان محمود يظن أن زوجته ستتغير بعد سفره . وقد وعدها بأن يأخذها معه بعد تخرجها من الجامعة وبعد أن يجهز نفسه في السعودية . فرحت أغاريد لسفر زوجها وشعرت أن جبلا من الغم قد انزاح عن صدرها . تخرجت أغاريد من الجامعة ، وأقام لها الأهل حفلا بسيطا.. سافرت إلى حلب لتكمل أوراق التخرج. في ممر الكلية التقت أغاريد بوليد، حاولت الابتعاد عنه ولكنه لحق بها خرجت من بهو الجامعة، واصل السير باتجاهها وأدركها عند بوابة الكلية .
- أغاريد لماذا تهربين مني ؟
ردت عليه بعنف:
- أنت خائن وغدار وكذاب وصاحب مصلحة .

- كل هذه الصفات لي يا أغاريد، من الذي ترك صاحبه؟ لم أرك منذ زمن طويل، لقد فتشت عليك كثيرا.
- عجيب أمرك، ألا تعرف أني تزوجت؟، كيف تتكلم مع امرأة متزوجة؟.
- تزوجت! لقد كنت صادقة في كلامك، لم تصبري علي يا أغاريد، أرأيت؟! من الذي خان صاحبه؟!

شعرت أغاريد بالإحراج، لقد كان وليد حاذقا في الكلام والإقناع، أرادت أن تمضي من أمامه، لكنه اعترضها قائلا:

- اسمعي يا أغاريد، لا يمكن أن أنسى حبك، ولن أتركك بهذه السهولة، حتى لو اختطفتك، لن أدعك بعد اليوم .

مضت إلى بيتها ولم تتفوه بكلمة واحدة، ولكنه ترك أثرا عميقا في نفسها وشعرت بأحاسيسها القديمة تتدفق وكأنها تولد من جديد .

لم يكن محمود بارعا في الغزل والكلام لجذب زوجته، لم يتكلم معها إلا مرات قليلة في الهاتف، ويتذرع بارتفاع ثمن المكالمة الدولية، شعرت أن العلاقة الزوجية مع محمود قد ماتت، وما عليها إلا أن تدفن هذا الزواج لكنها.. لم تهتد إلى طريقة ناجحة لوأد هذا الزواج، فقد خشيت من طلب الطلاق، وعدم موافقة أهلها وعمها على الموضوع .

- أمي.. أرجوك أن تفهميني، لا أطيق زوجي .. إني نادمة على زواجي، أريد الطلاق منه.
- لم تنضجي بعد يا أغاريد، لا زلت تفكرين تفكير الصغار.. لقد أفسدك الدلع، هل الزوج ثوب تغيرينه متى تريدين؟! اعقلي وعودي إلى رشدك، كفاك تمردا وتغنجا، ماذا نقول للناس؟ نقول ابنتنا لا تحب ابن عمها، ما ذا فعل لك؟. إنك لا تحمدين الله على النعمة.
- هذا ما يهمكم، دائما تخشون الناس! هذا عيب، وهذا لا يجوز..

ردت الأم على ابنتها بعصبية:

- ابنة جامعية، تخرجت بشهادة عالية تتكلم بمنطق غريب. العيب في المدارس والجامعات التي علمتكم التمرد على العادات والتقاليد .

تكررت اللقاءات مع وليد، واستطاع وليد أن يسيطر على كيانها وروحها، وأصبحت مسلوبة الإرادة أمامه .

- اسمعي يا أغاريد إذا لم تطلبي الطلاق، سأتزوجك بدون طلاق، نعم آخذك إلى القرية هناك حيث عاش والدي ووالدتي قديما وسأتزوجك هناك!!
- وماذا يقول الناس عني؟! خطيفة، خطيفة، أيعقل ذلك؟ وماذا أترك لوالدي وأخوتي بعد كل حبهم لي؟!
- دعك من كلام الناس، الناس يتكلمون لأيام ثم ينسون، وسيرضخ والدك وأهلك للأمر الواقع

لم تقتنع بكلامه.. لكنها استسلمت للواقع فقد أصبحت بلا إرادة .

- تركت رسالة بدموعها وتركتها لأخيها، ووضعتها على الطاولة.

قرأ سعد أخوها الرسالة وذهل من الحروف الأولى:

"أخي العزيز: أرجو أن تسامحني، وتطلب لي السماح من والدي ووالدتي، تزوجت اليوم من وليد، لقد طلبت منكم تكرارا ومرارا خلاصي من محمود، ولكنكم تجاهلتم الأمر، لم أعد أطيق رؤيته.. لا بد من الخلاص، لكن على طريقتي هذه المرة، سوف تستغرب الأمر، لكني أعلن لكم عن وفاتي لأني لا أستحق كرمكم ومحبتكم لي فقد سرقها محمود بزواجي منه"

قرأ سعد بقية الرسالة وشعر بصداع عنيف يكاد يفجر رأسه، تناول الهاتف وكلم أمه وأعلمها بالموضوع وطلب منها الحضور مع أبيه لمعالجة الموقف بحكمة .

كان الموقف صعبا على الوالد لم يستطع تحمل الكارثة فأجهش بالبكاء، والتفت إلى سعد.

- قل لي يا سعد ماذا أفعل؟ كيف أقابل الناس؟
- نعم يا أبي.. لكنها طرحت الحل في الرسالة، نعلن عن موتها ودفنها في حلب ونقول هذه وصيتها، توفيت في المشفى في حادث مرور بالمدينة.
- وزوجها، محمود، كيف نتصرف معه؟، نعلمه الأمر.. فيما بيننا، ولا نفضح بعضنا.

عادت الأسرة إلى مدينتهم الصغيرة (تل الرمان) وأقام الوالد خيمة كبيرة يستقبل فيها المعزين الذين توافدوا من كل مكان، مبدين أسفهم وحزنهم على المصاب الكبير .

تزوجت أغاريد من وليد بعيدا عن أهلها وأقاربها، لم تحظ باحترام أحد من أهله، ووجدت نفسها امرأة بلا كرامة وقد زفت إلى وليد، على عجل وبحفل بسيط. لم يعد باستطاعتها الرفض أو التأخير، هكذا وجدت نفسها زوجة لرجل ظنت أنه سيعوضها بحبه عن الأهل والأخوة، وستعيش قصة حب أشبه بقيس وليلى، وكثير وعزة .

أمضت عشر سنوات مع وليد كان يعاملها بقسوة وينعتها بكل الصفات السيئة، أنجبت ولدين وبنتا واحدة منه، حاولت أن تنسى همومها من خلال أولادها، ومن خلال عطائها كمدرسة لمادة اللغة العربية في مدينة منبج، لكنها كانت تحس أن القهر يفترسها، وأن زوجها يذبحها كل يوم، لقد قتل البسمة في وجهها ووجه أطفالها. في كل يوم تزداد ندما، ضحت من أجل شحص لا يستحق إلا القتل، أدركت تماما لو كان يحبها لما شجعها على فعلتها، الذي يحب.. يضحي من أجل حبيبه، لكنه دفعها إلى الهاوية، لم تحس بخطئها إلا بعد فوات الأوان.. ظنت أن أباها سينسى ويصفح عنها، ستتلقاها أمها بالأحضان بعد فتور الغضب.. تصرفت تصرف الطائشين، لكن ألم تكن طائشة في حياتها؟!.

دخل وليد البيت وهو يترنح ويشتم ويسب بألفاظ مقذعة كعادته، اقترب

منها ورائحة الخمر تفوح من فمه، شعرت برائحته كرائحة الخنزير، شتمته في أعماقها، رمقته بنظرة احتقار وازدراء.. أرادت الابتعاد عنه، ولكنه مسكها من شعرها.. لا زلت ترتدين ثوب البيت أيتها المأفونة، أيتها الخطيفة.. أحست بالإهانة، هذه الكلمة تجرح أعماقها ولكنها لا تستطيع الدفاع عن نفسها، كرر كلماته فتركته، وذهبت إلى الغرفة الثانية لتنام مع الأولاد.. وارتمى على الفراش مثل الثور!
اندست في الفراش بين أولادها، نظرت إليهم نظرة عميقة، وشعرت بالألم يعصر فؤادها وكأنها تراهم لأول مرة بكت من أعماق قلبها، أرادت أن تغسل حزنها، لا بل تطهر نفسها، ولكن كيف العمل؟ لا سماء تظلها ولا أرض تقلها، البكاء أفضل شيء لتطهير النفس..
اشتاقت لأبيها وأمها وإخوتها، لا سبيل لرواء الظمأ غير النوم والأحلام.

حاول أبو نضال نسيان ماضي ابنته، أراد أن يقنع نفسه أن أغاريد قد ماتت، لكنها لم تمت في أعماقه، آثر السكوت أمام ورود اسمها، لا يزال يرى أغاريد المتمردة البريئة أمامه تلعب وتضحك، تطلب منه الفلوس بتغنج ودلال.. وامرأته تردد أفسدت البنت.. يا معتز
ماتت أغاريد أمام الناس، لكنها حية في أعماقه خالدة في ذاكرته.. آه أيتها الدنيا تعطين القليل، وتأخذين الكثير نظر إلى الشمس وهي تميل إلى الغروب، وتنهد بعمق، المعركة تميل لانتصار الظلام.. نعم ولكن الشمس ستنتصر في أماكن أخرى هذه الحياة المعركة مستمرة بين الخير والشر.. هل ستمح السنون صورة أغاريد.. لا سيبقى اسمها ينبض في قلبه حتى على فراش الموت، أغاريد في قلبه كالبركان لن يخمد أبدا ولن يهدأ.. أغاريد تقرب الشيخ المسكين من عتبة الموت. قطعت أم نضال صمت الوالد الحزين.. تقدمت نحوه بخطوات مرتجفة، وببكاء دفين قائلة:
- بماذا تفكر يا أبا نضال؟ ألا تحافظ على نفسك وتدع عنك الهموم ؟
- وهل نسيت حتى أنسى مثلك؟

- لا ورب العالمين.. والتقت عيناها بعيني معتز، واختزلت العينان كل اللغات، واستندت إلى كرسي بجانبها، تحاول التخفيف عن زوجها!!

دخل وليد البيت والشرر يتطاير من عينيه، وصاح بزوجته صارخا:

- أنت يا... يا...
- نعم تكلم، أظن أن لي اسما تناديني به .
- لا ليس لك اسم عندي.. أنت لا شيء عندي .
- هل نسيت فضلي، وتضحيتي؟
- بل قولي عارك .
- حقا إن كان هناك عار، فأنت العار. العار عندما تزوجتك، يا ليتني مت قبل ارتباطي بك، لكنك كنت الشيطان نفسه.
- ولم لا تغسلين العار؟!، اذهبي إلى أهلك، أنا مستعد لطلاقك.. لكن اسمعي، سأتزوج بعد مدة بسيطة..

وخرج مقهقها ساخرا.. شعرت بالمهانة الكبيرة، وأنها لم تعد تحتمل الإهانات!، أحست بجرس الخلاص يدق، وأن الزمن يقترب من النهاية بسرعة، ولا بد للكاتب أن ينهي روايتها..

بدأ هاجس مرعب يقترب منها، ستطهر نفسها، وستغسل العار من أجل أولادها المقهورين ومن أجل أبيها عندما كسرت شموخه.. ومن أجل أمها عندما سحقت قلبها.. وتذكرت أمها، أماه أين أنت؟ أنت غاضبة! كم أنا بحاجة إليك! تعالي تعالي.. أريد أن أرتمي في حضنك كطفلة صغيرة، فتواسيني بالكلمات قبليني يا أماه لقد سحقتني الأقدام الدنيئة.

أه لو تريني فقد ذبل الجسم الناعم وذاب كالشمعة المحترقة.. طار الكرى من العيون.. ألا أستحق البكاء؟! سأبكي على نفسي .

تناولت ورقة وراحت تخط عليها كلمات معبرة:

"أبي العزيز.. أمي الحنونة.. أولادي الأعزاء.. من أجلكم جميعا قررت

الثأر لكرامتكم، أنتم من يسكن كياني.. أنتم من يرسم الفرح والحزن في قلبي، بعد الموت.. ارسموني بسمة في مآقيكم وفي وجدانكم.. ربما كنت عاصفة هوجاء في حياتكم ولقد آن الأوان للعاصفة أن تهدأ وتستريح. الخطيئة أحرقت عمري.. انتظر سماحكم وأعشق همسكم عند قبري.. سألتقي بكم في دار أخرى عند رب رحيم، لا يحقد ولا يمن.. انتهى زمني، وسأعود إليكم في مرسى آخر، وسأبحث عن السعادة عند شواطىء الصدق في عالم آخر. سأبوح لخالقي ما كتمته عنكم، كل ما أرجوه أن تسامحوني" .

وضعت الرسالة في مغلف، ثم لبست ثيابها وخرجت قاصدة صديقتها سارة، التي تسكن في الطرف الغربي من مدينة منبج.. استقبلتها سارة بالترحاب والتودد والسؤال عن الأحوال، وبادرتها أغاريد:

- اسمعي يا سارة سأكلفك بأمانة، أمانة غالية، فهل تحفظين الأمانة؟
- لقد ملأت قلبي بالخوف يا أغاريد.. أنت تعرفين معزتك عندي!
- هذه الرسالة تحفظينها عندك، إن حصل مكروه لي فأرسليها بالبريد لأهلي.

خرجت أغاريد من عند سارة وأحست بالدماء تتدفق من عروقها، بل تريد أن تتفجر، وترى الدنيا قاتمة اللون، أخذت تسود في عيونها ولا تشاهد إلا زوجها مضرجا بالدماء.. دخلت البيت، قدمت لأولادها الغذاء واحتضنتهم طويلا تودعهم الوداع الأخير.. دخلت غرفتها وقد أحضرت سكينا كبيرة وأخفتها تحت الفراش، وجهزت فأسا لديها وضعتها تحت السرير.. حضر زوجها بعد منتصف الليل ورائحة الخمر تفوح منه وكالعادة، بدأ بالسباب والشتائم الجارحة، اقترب منها، غاضبا، وهو يسمع ردها العنيف والتوبيخ له.. طار الشرر من عينيه، يا ابنة الل...، ولكنها لم تدعه يكمل كلامه، تناولت الفأس وضربته على رأسه بقوة، ترنح ولكنه لم يسقط، سحبت السكين من تحت الفراش وتقدمت نحوه

وغرست السكين بصدره فسقط مضرجا بدمائه..سمعت خطو أقدام نحو البيت خرجت مسرعة، لا تلتفت وراءها كانت تركض مذعورة في شوارع المدينة، تريد المخفر.
ولكن شخصا قد لحق بها ويركض وراءها، التفتت إليه كان القادم أخا زوجها، ركضت ولكنه صوب نحوها بالمسدس الذي كان يحمله فسقطت في بركة من الدماء تطهر نفسها..
مدت الأم يدها تتحسس الجسد الناعم الذي كان يذوب في الحرير، وعطر الأزاهير، وطبعت على جبين الفتاة المتمردة قبلة، لتهدأ روحها.
اختزلت أغاريد الزمن كما أرادت.. ثمة أشخاص وقفوا على جثتها في المشرحة، وبكوا عليها بكاء مرا، تقدم والدها، ولكنه لم يقبلها، نظر إليها نظرة أخيرة.. واراها التراب وقرأ على روحها الفاتحة، ماتت الشجرة دون أن تورق..!، لكنها بقيت جذورها تذكر الآخرين بمكان وجودها.

وسرقت عمري سماح.. الكويت الجمعة ٢٠٠٥/٣/٢٥

نسي الشاب نفسه في غمرة العمل والحياة، فقد استحوذ العمل على كل وقته، نهاراً وليلاً. وجد لذة في عمله الجديد، وفي مكتبه الهندسي المتواضع. وقد نجح في عمله بسرعة بالرغم من حداثته في التخرج. وعمله وسط حيتان المقاولين والمتعهدين. تيسرت أحواله فاشترى سيارة صغيرة تزيد من وجاهته أمام الناس. لم يفكر بالزواج أبدا. ربما انشغاله بمسؤوليته تجاه عائلته، أو أن شريكة المستقبل لم تظهر أمامه بعد. أدرك الفتى المسوؤلية الملقاة على عاتقه بعد وفاة والده، لا زال أمامه أخوة يدرسون في الجامعات ويحتاجون إلى المصاريف الكبيرة. فقد كان مسئولا تجاه أمه وأخوته الثلاثة.

استيقظ مبكرا، واغتسل بهدوء وارتدى طقم الجينز الأزرق، ثم وقف على المرآة ليحلق ذقنه ويصفف شعره ولبس سترة الفرو، الجو شديد البرودة لا تزال ثلوج الأمس تغطي طرقات الشام، وعليه أن يخرج إلى المشروع. بدا جميلا وسيما على غير عادته. فقد كان لا يهتم بهندامه كثيرا. استوقفته أخته منال وقالت له:

- هذا غير معقول، أأنت خارج إلى عرس أم إلى العمل؟ هناك واحدة في حياتك، ما هذه الوسامة والجمال يا عبدو؟!

ابتسم وقال لها:

- أنت تلاحظين كل شيء يا منال، لا شيء ولكني أتقي البرد القارس في هذا الشتاء الصعب.

ركب سيارته وقطع شوارع المدينة، كان الثلج يتناثر على زجاج سيارته كقطن أبيض، لكنه لم يكن غزيرا، الجميع خرج إلى عمله، ولا بد من العمل لأن الوقت محسوب عليه وإذا ما تأخر في المشروع سيدفع غرامة ويقع في الخسارة .

كانت الأفكار تواكبه مع موسيقا ماسحات الزجاج على السيارة . صورة

أبيه لا تفارقه فقد علمه على هذا العمل، وكان يتمنى أن يراه مهندسا كبيرا يشرف على مشاريع أبيه .
عندما دخل البيت استقبلته ابنة خالته سماح وقالت له:
- كيف حالك يا عبدو؟ جئت لتشرح لي بعض المسائل في الرياضيات، لم أستطع حلها. وأنت لا تبخل في مساعدتي .
نظر إليها مبتسما وقد بدا مذهولا لجمالها، ظهر الارتباك واضحا على الرجل الموزون الجاد في حياته. هز رأسه موافقا وقال:
- حسنا بعد راحة الظهيرة إن شاء الله نبدأ الدرس.
رآها فتاة تختلف عما قبل، تبدي اهتماما كبيرا بنفسها، عيناها الزرقاوان يضفيان عليها بريقا من الكبرياء والتحدي. تفحصها بسرعة دقيقة بدءا من شعرها الأشقر المنسدل على كتفيها، تتدلى بعض الخصلات الصغيرة فوق جبينها، والثوب الفضفاض الأبيض اللون إلى أخمص القدمين الصغيرتين الناعمتين. ولم تفته الابتسامة الدائمة التي تعبر عن الحنان والإنسانية في داخلها. بهرته الفتاة وبدأ يحس أن عواطفه تنجذب إليها، لم يكن يعيرها اهتمامه، كان يكبرها بعشر سنوات أو أكثر لهذا كان يراها صغيرة دائما. لكن ها هي كبرت وتقدم الشهادة الثانوية الفرع العلمي لدورة ١٩٨٢. كان يداعبها في الكلام أحيانا ويلاطفها كأخت له ولم يحس يوما أن عواطفه تجاهها كانت عواطف حب إنما مشاعر قرابة ومودة. ترتبط العائلتان بروابط القربى حيث تكن خالته له عظيم المحبة والاحترام، ولم يشعر أنه تفرق بينه وبين أولادها.
بدأ الحب يتسرب إلى قلب الرجل الخجول الصارم الذي لا يعرف المزاح، فقد وجد أسرة تكيل له المدح والثناء منذ صغره والكل يراه كبيرا قبل أن يكبر. لم تكن له علاقات نسائية أو غرامية؛ فكان حب سماح الذي بدأ يغزو قلبه جديدا عليه، لم يهتد إلى طريقة لمقاومة ذلك الحب الغازي . لكنه آثر كتمان حبه عن الفتاة ريثما تكون الفرصة سانحة له بعد نجاحها

من الثانوية.

لم تغفل الفتاة تودد ابن خالتها نحوها، بل كان تنظر إليه كمثل أعلى في حياتها. فهي تسمع عبارات الإطراء والمديح من أمها وخالتها تجاه عبدو. وتمنت لو أن عبدو يبوح لها بكلمة واحدة يعبر فيها عن حبه لها. كان يساعدها في الدراسة وخاصة في مسائل الرياضيات وقريبا منها، يحثها على الدراسة وعدم التقصير ويؤنبها بلطف أحيانا. مما ترك أثرا قويا واحتراما زائدا داخل نفسها . إنها تهابه لكنها تشعر بخيط عاطفي يربط قلبها بقلبه. لم تترك له مجالا أبدا فقد لاحظت اهتمام عبدو بها ، وهي لا تريد منه سوى كلمة واحدة تخرج من شفتيه يظهر فيها حبه لها.

أكثر عبدو من زياراته لبيت خالته، كان واثقا من حب سماح له، وسيجدها في أي لحظة عندما يحين وقت الزواج وتنتهي من شهادة الثانوية العامة .

بقي عبدو في حدود الرسميات ولم يحرك ساكنا بعد نجاح سماح . دخلت الجامعة ولم يبد أية مشاعر نحوها. لا شيء يحرك ذلك الصدر المغلق الذي يحبس في داخله حبا لو خرج من قمقمه لكان ماردا .لكن الفتاة التي تخفي في نفسها روح التمرد والانفتاح أرادت استباق الزمن وتحريك مشاعر الرجل واختبار نواياه تقدمت منه في إحدى الزيارات، وقد ابتسمت ولمعت عيناها الوقادتان ونظرت إليه بمكر وقد تدلت خصلة من شعرها على جبينها فقالت:

- متى تتزوج يا عبدو؟! وهل يمكن أن أعرف سعيدة الحظ ؟!

احمر وجه عبدو من الخجل ارتبك في الإجابة فقد أدهشه السؤال، وقال:

- عندما يحين الوقت يا سماح، لكن لِمَ تسألين هذا السؤال؟.

تقدمت نحوه أكثر والتصقت به، أرادت أن تجذبه بجمالها. وقالت:

- هل أزعجك السؤال؟!

وأردفت بتغنج:

- أنا آسفة إذا كنت تدخلت في خصوصيتك يا عبدو. لكني أشعر أني قريبة منك .
- لا يا سماح أنت أقرب شخص لي، اسألي ما شئت، يجوز لك ما لا يجوز لغيرك .
- وما معنى ذلك؟ ولما أنا بالذات؟!.

(أرادت اعترافا منه بالحب).. لكن عبدو لم يجب واكتفى بابتسامة خجولة وانسحب من المكان، نظرت وهو يغادر المكان وعلتها ابتسامة الانتصار بعد أن حركت الجبل من مكانه وقالت:

- (لن أجعلك تفلت مني مهما كان الثمن يا عبدو! أتظنني صغيرة؟!)

طال الوقت وعبدو لا يتكلم، ولم يشر لأهله على فتاة بعينها، شعرت أمه بالحزن عليه جاءته مرة وهو يجلس لنفسه وقالت له:

- ياعبد الكريم لِمَ لا تتزوج؟ تزوج يا بني، هذا أخوك سيتخرج في نهاية السنة إن شاء الله. وأختك تخرجت من المعهد وستتزوج في الصيف بإذن الله، ولم يبق أمامك مانع يمنعك من الزواج.. أشر لي بفتاة أخطبها لك.. أأخطب لك سماح ابنة خالتك فيها جميع المواصفات التي تليق بك.. وإن كانت أصغر منك سنا.

(أرادت الأم أن تختبر نوايا ابنها وهي التي كانت تضع سماح أمامه بشكل غير مباشر لتلفت انتباهه نحوها)

- أعرف عواطفك الغالية يا أمي وعندما أريد الزواج سأخبرك باسم العروس

ابتسمت أم عبدو وتمنت ذلك وقالت:

- أحب أن أرى أولادك وأربيهم كما ربيتك يا عبدو.

حضر الجميع عقد قران منال أخت عبدو الكبرى، حضر الأقارب والأصدقاء الحفل. وبدت سماح أكثر تألقا من العروس. فقد خطفتها العيون من كل مكان، وسأل عنها الموجودون من الحضور. حاولت

التقرب من عبدو، لكن عبدو آثر البعد عن العيون ويشعر بالخجل يتملكه في مثل هذه المواقف. غيرت سماح ملابسها مرات عديدة في الحفل وتمايلت على أنغام الموسيقا وعيونها متسمرة على عبدو، لاحقته بعيونه في كل مكان. كانت تحس به يسرق النظرات منها رغم رزانته وجديته في الموقف. كان عقد القران مناسبة لعرض البنات الجميلات، وتعارف الأقارب على بعضهم. شاهد عبدو ورودا كثيرة في الحفل ولكن سماح كانت الأجمل في نظره. كم تمنى لو مسك بشعرها المنساب المتراقص كالشلال على كتفيها .

في اليوم الثاني التقى عبدو بسماح، كانت ابتسامته هذه المرة متألقة واندفع نحوها على غير عادته. عرفت سماح قصد عبدو، أدركت أن الرجل يهيم بها فصممت إن تغرقه في حبه لعله يتكلم. قالت له:

- كيف كانت الحفلة ليلة أمس ؟

التفت إليها وركز نظره في عينيها وقال:

- سماح كانت متألقة في الحفل، كنت أجمل الجميع .

شعرت بالفرح يهز قلبها، أرادت المزيد من الاعتراف، وأن تغوص بأعماق قلبه، وقالت:

- وماذا بعد ؟!

شعر عبدو أن الفتاة تدفعه إلى تجاوز الحدود وتشده بإفراط نحوها.. أراد أن يقول لها أحبك. لكن الكلمة كانت صعبة. إحمر وجهه وقال:

- ألا يكفي هذا الوصف أيتها الشقية؟.

قالت بخبث:

- بلى هذا ثناء لم أسمعه من قبل. لكنه جرعة منشطة تدفعني للغرور.

أحست الفتاة أن لا فائدة من الحديث مع عبدو .

مضى عام ولم يتحرك عبدو، ولم يظهر مشاعره لأمه التي حاولت مرارا

معه دون جدوى، لابد أن سرا في أعماق نفسه.
تخرج أخوه هاني من كلية الهندسة، وامتلأ البيت بالمهنئين، كان عبدو أكثر الناس فرحا بتخرج أخيه لأنه ثمرة جهد عبدو في العائلة .
كانت أم عبدو تزغرد، وتستقبل المهنئين، وسماح ومنال يوزعان الحلوى والمشروبات على الموجودين، وترتديان أجمل الملابس احتفاء بهذه المناسبة .
شعر عبدو بالتعب قليلا، سحب نفسه من بين الحاضرين ودخل غرفة هاني.. استلقى على السرير، تجولت عيناه في أرجاء الغرفة فجذبت أنظاره مذكرة مزخرفة على الطاولة. دفعه الفضول لفتحها فوجد فيها صورة فتاة .
تمعن في الصورة، دقق فيها مرة ثانية، وضع رأسه على جبينه كأن صدمة قد ضربته. قال محدثا نفسه: يا إلهي هذه صورة سماح. نظر خلف الصورة فوجد عليها كلمة أحبك .
شعر بالمفاجأة. تمتم بعبارات متقطعة:

- هل تلاعبت سماح بمشاعرنا؟، أيعقل هذا التصرف يا سماح؟، هذه خيانة. أيحب أخي سماح؟

كانت الأسئلة تتلاحق كأسئلة المحقق في المخفر. خرج من الغرفة مكفهر الوجه وركب سيارته متجها خارج المدينة باتجاه طريق بيروت بعيدا عن الناس.. جلس في استراحة على الطريق منزويا عن الناس يسترجع كل الذكريات، لقد شعرت بجفوة منها في الأشهر الأخيرة، لكن..

- الذنب ذنبي لم أصارحها بشيء،

لقد أضاع الفرصة من يده عندما كانت أمامه . لا بد أنها فضلت هاني .
حزن أشد الحزن على حب مات في صدره.. وقال:

- ليتها عرفت أنها قتلتني يوم أعلنت موت حبنا.

غاب في دوامة من التفكير. وقرر أن يتركها لأخيه، فليبارك الله له بها.

شعر بحزن يطبق على صدره، لم يعد قادرا على التفكير، كأن دماغه قد شل. لقد تركت الصورة جرحا نازفا من الصعب أن يندمل مع الأيام .
مر في طريق عودته إلى المقبرة ليدفن أول حب له، وليقف على جنازته ليبكي عليه بمرارة من أعماق قلبه .
لا حظ الجميع تغير أحوال عبدو. الكآبة لا تفارق وجهه، كان يبدو مهموما حزينا منطويا على نفسه، كثير الخروج إلى العمل، لا يجلس في بيته إلا قليلا .
حاولت أمه معرفة السبب، لكنها لم تصل إلى نتيجة. شعر الجميع بالحزن ألما على عبدو الذي احتل مكانة كبيرة في نفوسهم .
قرر أن يبعد فكرة الزواج عن رأسه في الوقت الحاضر، تعلل بأسباب كثيرة لأمه وأخوته الذين لم يقتنعوا بها، لكنهم لم يفقدوا الأمل. كم تمنت منال أن ترى أخاها عريسا يقف إلى جانب عروسه معها. زفت منال وفي نفسها، حسرة وغصة على عبدو.
جاءت أم عبدو تمشي ببطء، تقدم رجلا وتؤخر الأخرى، تريد أن تكلم عبدو.. رأى عبدو الوجل في عيني أمه. كأنها تريد ان تقول كلاما. طلب منها الجلوس. وقال لها:

- كأني أرى في عينيك كلاما يا أمي.
- نعم ولكني خجلة .

قبل رأسها وقال:

- أنت تملكين روحي يا أمي فاطلبي ما شئت .
- هل تسمح لأخيك بالزواج ؟
- الزواج ! ممن ؟
- يريد الزواج من ابنة خالتك سماح. إنهما متحابان .

ابتسمت وقد صدت عن عبدو كي تخفي ابتسامتها. شعر بخنجر يغرس في قلبه. فكر قليلا ثم قال:

- هذا الأمر مفرح، إني أتطلع لمثل هذه المناسبة، حيث أرى أخي عريسا.. ليبارك الله له. إني أبارك هذا الزواج. كنت أتمنى أن أحضر زواجهما.

دهشت أم عبدو من المفاجأة وقالت بنبرة حادة:

- ولِمَ لا تحضر يا عبدو؟
- لقد وقعت عقدا مع شركة في الكويت، وسأستلم عملي في بداية الشهر.

نزل الخبر على الأم المسكينة كالصاعقة، انحدرت الدموع من عينيها وقالت:

- لست بحاجة إلى عمل في الخارج. أنت ناجح في عملك هنا، ونحن بحاجة إليك. كيف تقوى على تركي؟ لا أستطيع أن أصبر على فراقك يا عبدو .
- لقد وقعت العقد يا أماه، وسأمضي عدة سنوات وأعود بإذن الله، وستكون هناك إجازات أزورك خلالها يا أم عبدو .

قالت الأم وقد بدا الحزن عليها، وشعرت بضعف ينتابها:

- لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصبر جميل، وبالله المستعان .

عندما سافر عبدو كان الموقف صعبا للغاية، لم يتمالك الجميع نفسه في مطار دمشق، الكل بين مصدق ومكذب، شيء أشبه بالخيال، لوحت الأيدي للمسافر والدموع منهمرة من العيون. دخل الطائرة ليبدأ حياة جديدة وتاريخا جديدا من حياته .

بدأ عمله في مدينة الكويت، انهمك في عمله، وقد عرف بالنشاط والنظام والعمل. قد سيطر العمل على عقله، حاول أن يضع مشاعره تحت سطوة عمله، لكن أحاسيسه كانت تخرج من سور الحصار، وتتأجج العواطف في قلبه فتصبح كالنار المشتعلة وكلما استرجع الماضي زاد من إضرامها.

كانت نفسه تتوق للعودة إلى وطنه منذ الوهلة الأولى، لكن كلما تذكر سماح يتراجع عن موقفه. صبر وتصابر، كبح جماح شوقه لأمه ، شعر بنفسه كسمكة خرجت من الماء. لكن الرجوع صعب، سوف يستصغره الناس حسب تفكيره .
يريد أن يترك السنين لتمحو الذاكرة وما بقي عالقا فيها من حب سماح .
بقي في الكويت ثلاث سنوات لم يسافر فيها إلى أهله، لكنه كان على اتصال دائم مع أمه على الهاتف والرسائل. لم تكن والدته مطمئنة على أحواله تشعر بأحواله النفسية المتعبة، لذلك بقي بالها مشغولا دائما به.
ركب عبدو أول طائرة متجهة إلى دمشق بعد أن أخبره هاني أن أمه مريضة وتطلب حضوره فورا. أمضى مع أمه المريضة شهرين كاملين لا يفارقها أبدا. لم يستطع عبدو أن يفعل شيئا لأمه حيث اشتد المرض وأسلمت الروح للرب الخالق الكريم. حزن عليها أشد الحزن، فقد كانت السند الوحيد له في الحياة. فقد الابتسامة التي تستقبله عند دخول البيت، فقد القلب الذي يسمع همسات قلبه، عصر الوجد فؤاده، وغمرت المأساة نفسه. لكن لا مفر من التسليم بأمر الله فقد كان مؤمنا بقضاء الله متقبلا لقدره .
بعد مراسم العزاء رجع إلى الكويت لعله ينسى موت أمه، فالمكان بدون أمه موحش.. استمر عبد الكريم في عمله خمس سنوات أخرى، شعر أن الغربة أكلت سنين شبابه فآثر العودة إلى وطنه، رجع إلى وطنه بعد جمع ثروة لا بأس بها ليفتح مكتبا هندسيا فخما يليق به.
لم يحظ بتلك الحفاوة والأهمية التي استقبل بها من قبل، حيث كان الجميع مشغولا بعمله وأولاده. دعاه هاني لزيارته في البيت.. لكنه رفض، أراد أخوه أن يعرف السبب وجفاء أخيه لزوجته، لكن عبدو آثر الصمت في مداواة الجرح . لكن سماح لم تبد ضيقا ولم تشتك لزوجها، لكن هاني لاحظ ذلك، بقيت زوجته صماء خرساء أشبه بالمرأة البليدة التي لا يعنيها

الموضوع من قريب أو بعيد. غير أنها تدرك مدى حزن عبدو وعتبه عليها. لم يمنحها فرصة للتعبير أو الاعتذار. كلما التقت عيناه بها يشيح بوجهه عنها. أدركت أن الرجل لم يسامحها فهو يحمل في قلبه الكثير.
بدأ عمله في مكتبه الجديد، ضمت شركته مجموعة من العاملين والعمال، عرف بحبه للعمل وتقديره للعمال. حيث كان يساعد المحتاجين ويقدم الخدمات. كان رمزا للرجل المستقيم المؤمن الذي يعرف حقه وحقوق غيره. تواضعه دفع العاملين إلى محبته وتقديره .
دخلت المكتب امرأة جميلة تبدو في الخامسة والعشرين من عمرها، تبدو عليها أناقة بسيطة ترتدي ثيابا متواضعة، طويلة القامة. سألت عن الأستاذ عبدو كانت تحمل بيدها ورقة. أخذ عبدو الورقة إنها توصية من صديق وقريب بنفس الوقت. يوصيه بإيجاد عمل للمرأة إذ تعيل أسرتها التي فقدت معيلها منذ سنوات عديدة. نظر إليها عبدو نظرة متمعنة، كأنه لأول مرة ينظر إلى امرأة جميلة .
رحب بها أجمل ترحيب ودعاها للجلوس، جلست كقطة أليفة يبدو عليها الوجل والخجل. وافق على طلب صديقه ووظفها سكرتيرة له في المكتب، طلب منها أن تداوم في اليوم الثاني بعد أن شرح لها طبيعة عملها.
داومت ميساء على عملها، كانت نشيطة ومؤدبة أدبا كبيرا أضفت على المكتب الأنسة والجمال. حملت عن عبدو كل أعباء المكتب وتنظيمه وملفاته، ارتاح عبدو لوجودها، كأنها هبة من الله تبعد عنه الوحشة.
صوتها الرقيق ينساب كهمس النسائم في الربيع، بدأ الصوت يستهوي القلب المتحجر، راح عبدو يهتم بها يوما بعد يوم. احترامها الزائد كعاملة في المكتب جعله يشعر بشيء من الدفء، استوقفته مرة وهو خارج قالت له:
- انتظر..
وقف أمامها مذهولا راحت تعدل ربطة العنق.. لأول مرة يحس بامرأة

تهتم به. بعد أن خرج قال:

- الحـيـاة لا تسـاوي فلـسـا مـن غير امرأة!.. أين كنت من حياتي يا ميساء؟

دخل المكتب صباحا، ألقى التحية. كعادتها بعد دقائق جاءت له بالقهوة التي تعملها بيدها. أرتشف من الفنجان رشفة ثم نظر إليها، وجدها منكبة على عملها.. ساءل نفسه:

- هل عرفت الحب أم أنه لم تكتو به بعد؟.. ما الذي يمنعها من الزواج وهي بهذا الجمال؟.. سأعرف الحقيقة، لكن ليس بعد الآن .

أمضت ميساء عاما في عملها وعبدو يزداد إعجابا بها، لكنها ما زالت تعامله في حدود الرسميات. تمنى لو أنها كسرت ذلك الحاجز الذي يفصلهما عن بعض .

لم تكن ميساء بعيدة عنه كانت مثله تختلس النظرات عليه عندما ينهمك في عمله. يبدو في الخمسين من عمره ولكن مواليده تثبت أنه في الخامسة والأربعين من عمره. غطى الشعر الأبيض معظم صابريه وأعلى رأسه، برزت كرشه قليلا للأمام، لكن تبدو عليه ملامح الهيبة والوقار والاحترام. لم يدر بخلدها أن الرجل يمكن أن يحبها، عرفت أنه غير متزوج وظنت تقربه منها ومعاملته الحسنة من باب الأخلاق والعطف والصفات التي عرف بها.. تنبهت على صوته:

- ميساء هذه الأوراق لم تنجز بعد ، ما الأسباب ؟
- نعم يا أستاذ، البلدية لم توافق على المخطط، وتحتاج إلى دراستك لتعديل المخطط .
- حسنا يا ميساء .

نظر إليها وأدام النظر، أحست به فاحمرت وجنتاها من الخجل، شعرت بالارتباك وأشغلت نفسها بأوراق أمامها واختلست نظرة إليه، ما زال ينظر إليها. أدركت عمق نظرته. لأن الفتاة الذكية تميز عمق نظرة الرجل

وتفهم ما يجول في خاطره. واستدرك عبدو الكلام:

- هل أنت متزوجة يا ميساء؟ .
- لا يا أستاذ عبدو أظن أن قطار الزواج قد فاتني. ابتسمت ابتسامة مكراء.

خجل عبدو ورد على ابتسامتها بهز رأسه.. تعجبت ميساء من سؤاله وقالت:

- يا إلهي، أيحبني الرجل؟، ماذا وجد عندي غير الفقر والحالة البائسة؟ حافظي على نفسك أيتها البنت، ولا توقعي الرجل في حبالك ثم تساءلت: لكن لماذا لم يتزوج؟ هناك سر يقف وراء تأخره عن الزواج. وهو لا يكره النساء كما فهمت. إنه لطيف معي .

لهذا حرصت ميساء على عدم التزين والتبرج في عملها، فهي كما جاءت أول مرة لم تغير من أحوالها. كأنها تريد أن تقول للرجال: هذا القلب لا يحب، ولا يعشق. كانت لا تريد أن توقع أحدا في حبالها. لكن هذا ما زاد من إعجاب عبدو بها، واحترامه لها.. انتبهت لصوت عبدو يكلمها:

- أين أنت يا ميساء؟ أين شردت؟ أكلمك ولا تردين. على كل لا تفكري بشيء، عندما تشعرين بالحاجة اطلبيني أكن عند حسن ظنك .

شكرته، وامتنت له، وسبحت في بحر من الخجل، ثم دوى الصمت بينهما وأردف عبدو:

- أريد أن أقول لك كلاما، إذا سمحت لي قلته .

هزت رأسها وابتسمت فقال:

- أنت تشبهين فتاة عرفتها في شبابي، لقد أحببتها حبا لا يوصف لكن.. ذلك الحب مات وبقي الجسد، دفنت حبي وبقيت أعيش على خياله .

تطامن الحزن في نفسها، ورقت للمشاعر الحساسة وذرفت الدموع

سخية.. وأردف عبدو:

- لا أريد أن أثير أحزانك، لكن أردت أبين الشبه بينكما

تبعثرت الذكريات في عقله، شعر بتجدد الأحزان، تدفق الأسى في قلبه كالسيل العارم. تمالك نفسه وخرج من المكتب ليركب سيارته مغادرا المكان .

شعرت بالحزن عليه، أطرقت برأسها على الأرض، قالت محدثة نفسها:

- الفقراء تعساء، والأغنياء أشقياء، ما الذي يمنع رجلا مثل عبدو من الاستمتاع بالحياة ؟ ما كنت أظن أن قلبا رحيما مثل هذا القلب يحمل بين طياته بحرا من الحزن والأسى. كل ما أخشاه أن يقع الرجل في حبي، وأنا التي كابرت لسنوات عن الحب فقد ملكت أحلاما كثيرة. أيكون عبدو هو حلمي الأخير؟ لا أعرف.

كانت ميساء تتخيل شكل الزوج القادم في خيالها دائما، سيكون ممشوق القوام مثل زوج ابنة عمها، أو مثل عريس صديقتها مها. هي تستحق ذلك، راحت تملأ نفسها بأحلام كثيرة. رفعت رأسها نحو الأعلى رأت صورة عبدو المعلقة، قالت:

- عبدو طيب القلب، سمح النفس تتمناه كل فتاة. لو يخفف وزنه قليلا! لو يهتم بهندامه أكثر! فارق العمر لا يهمني يمكنني أن أتجاوز هذه المشكلة. لكن عبدو حلم! هل يرضى أن يتزوجني؟ إنه حلم...

شعرت بالبرد، لبست رداءها الشتوي ونظرت من النافذة وجدت السماء متلبدة بالغيوم الداكنة، والأمطار متلاحقة، خرجت منصرفة إلى البيت، من الصعب أن تنتظر توقف المطر الغزير. سارت في الطريق كالمذعورة. لِمَ هذا الخوف يامیساء؟ سألت نفسها ثم قالت:

- لقد شعرت بهذا الخوف عندما توفي والدي، عندما أحسست بالمسؤولية، تذكرت الماضي عندما كنت في السابعة عشرة من

عمري. عندها تركت دراستي وأنا في نهاية الثانوية، الزمن يركض بنا ولا نستطيع اللحاق به، أنا على مشارف الثلاثين من عمري.

والدتها في انتظارها. ثلاثة أخوة ذكور تحبهم أكثر من حب أمهم لهم. ويحبونها كحب أمهم. حثت خطاها للوصول إلى موقف باصات ركن الدين لتسقل حافلة إلى منزلها. (وتتابع تفكيرها) لم تنس الأعمال الكثيرة التي اشتغلت بها منذ أن تكفلت إعالة إخوتها، فقد عملت ممرضة في إحدى المشافي الخاصة، وعملت ممرضة عند طبيب تداوم في الصباح والمساء.. كانت تعود منهكة من التعب، لم تتذمر يوما، لم تشك يوما، كي لا تثير المتاعب لأمها أو أخوتها .

أكثر من عام وميساء وعبدو متقابلان في المكتب الواسع. ازداد عبدو إعجابا بها. لقد توله بالسكرتيرة، لكنه كعادته كان صامتا. لم تكن بعيدة عنه ينتابها نفس الإحساس. قرر عبدو أن يفاتحها بالزواج، سيكون صريحا ولن يدعها تفلت من يده مهما تعددت الأسباب .

دخل المكتب، قدمت له مجموعة من الملفات لدراستها وكشف الحسابات بعد انتهائه من الأوراق.. طلب فنجانا من القهوة فهو مغرم بها، خاصة من يد ميساء التي تعتني بقهوته عناية خاصة.. وجد المناسبة للكلام فقال:

- ميساء أريد أن أتزوج ما رأيك؟
- مبروك يا أستاذ، إنه خبر مفرح. (شعرت بالغيرة وامتقع لونها)
- لكن لم تسأليني عن العروس .
- من أين لي أن أعرف؟ ربما تكون قريبة لك وتليق بمقامك .

(كانت ترد بعصبية واضحة)

- عروس جميلة، وحلوة، وعذبة.. لكنها ليست من أقاربي، لم أكلمها في الموضوع، انتظر رأيها. لقد ملكت كياني وقلبي .
- هل هذا لغز أم أنها قصة سينمائية؟

- لا.. إنها حقيقة. أعاد حبها اليقظة إلى ذاكرتي المفقودة، جمعت أشلائي المتناثرة .
- أي امرأة بلهاء تلك التي تحبها؟ وهي لا تعرف. ربما هي في الخيال وترسم صورتها. أو ربما هي محبوبتك التي ماتت من سنين ولا زلت تعيش على أنقاض مملكة مندثرة. ربما زدت من صراحتي ولكن اسمح لي.
- إنها حقيقة وقريبة مني، هي أقرب مما تتصورين. سأخبرك عنها في الأيام القادمة بعون الله، لن تكوني بعيدة عنها .

راحت ميساء تضرب أخماسا بأسداس، قريبة مني، لا بد أنه يعنيني، يا إلهي، أيحبني وأنا لا أدري؟، شعرت بالفرح يغمر قلبها وكيانها، لم تتصور أن عبدو المهندس الغني يقع في حبها. تخيلت نفسها وهي ترتدي ثوب العرس الأبيض وتضع يدها في يد عبدو .

أيتحقق حلمها بعد أن تلاشت أحلامها السابقة؟، أرادت أن تكمل عملها ولكنها كانت متعبة، لا تستطيع التفكير، استأذنت من عبدو وخرجت تقصد منزلها .

بعد عدة أسابيع قرر عبدو مصارحة الفتاة وطلب يده ليرى رأيها، جلس أمامها في المكتب ونظر إليها وجدها مهتمة بنفسها كثيرا على غير العادة، إنها أجمل من قبل. قال لها:

- ميساء أريد أن أكلمك في موضوع خاص .
- تفضل أستاذ عبدو
- المكان غير مناسب، ما رأيك لو خرجنا إلى مطعم في مكان جميل
- أنا أفضل مكان العمل .
- حسنا، ما رأيك بالزواج ؟
- سنة الحياة، يكمل فيه الإنسان نصفه الآخر .

- هل توافقين على الزواج مني؟

شعرت بهزة في جسمها لقد صدقت توقعاتها. ارتبكت في إجابتها، ابتسمت ثم قالت:

- الأمر عند أهلي، يمكنك أن تطلبني منهم .
- أأفهم من ذلك أنك موافقة ولا تمتنعين؟
- أنت أمنية كل فتاة يا أستاذ عبدو .
- لا أريد كلمة أستاذ، عبدو فقط. لكن حددي الموعد لمقابلة الوالدة والأخوة .

كاد يطير من فرحه، شعر بنشوة غريبة، ستتحقق أمنياته هذه المرة، هذه سماح تعود إليه لن تفلت منه هذه المرة، الطير لن يطير منه سيمسك بجناحيه ويمنعه من الطيران. ستعوضه ميساء عن كل سنين عمره الضائعة .

خرجت ميساء من المكتب تكاد تطير من فرحتها، كانت مسرعة في مشيها يلفحها الهواء الشديد ولكنها لا تحس به، أحست أن الدنيا لا تتسع لفرحتها، ستزف لأمها بشرى طالما انتظرتها، ستقول لها:

- هناك شخص مهم سيزورنا، إنه عبدو مدير الشركة. سيتقدم للزواج مني يا أمي. علينا أن نرتب بيتنا بسرعة قبل الموعد .

كانت الأحلام تتابع في ذهنها، ستشتري ثياب العرس من الصالحية ومن سوق الحميدية. وستشتري أفضل ثوب للعرس في مدينة دمشق .

أحست أنها تحلق في الجو عاليا كحمامة بيضاء، أحست بطول الطريق حتى تزف البشرى لأمها .

طرقت الباب طرقات سريعة. فتحت أمها الباب رأت لهفتها والفرحة بادية على عينيها. وقبل أن تتكلم قالت أمها:

- ادخلي غرفتك وغيري ملابسك عندنا ضيوف .
- ضيوف ؟

- نعم إنهم أعمامك جاؤوا من الضيعة ، ادخلي وسلمي عليهم .

دخلت وسلمت على أعمامها وأولاد عمها، استقبلوها بحفاوة كبيرة.. أحست بأن أمرا ما يجري في البيت، دخلت على أمها في المطبخ، قالت لها:

- ما الأمر يا أمي؟
- اسمعي يا ميساء، أعمامك لهم فضل علينا، هذا عمك الحاج عبد الحميد جاء يطلبك لابنه وسيم، وقد وافقت على زواجك أنا وأخوتك، لا نريد أن تبقي من غير زواج، أتريدين أن تصبحي راهبة؟

نزل الخبر كالصاعقة على رأسها، عقد الخبر لسانها واصفر وجهها، وشعرت بدوار في رأسها قادتها أمها من يدها وأدخلتها الغرفة ، دخل الغرفة أخوها ورأى وضعها، قالت أمها إنها متعبة من العمل. سترتاح بعد قليل.. قال لها أخوها:

- لقد أعطينا كلمة لأعمامنا، ولا أظنك تردين كلمتنا أيتها الأخت العزيزة. نحن قد كبرنا وقدمت كل التضحيات من أجلنا، نحن فرحون مثل فرحك، مبروك الزواج سيكتبون الكتاب مساء اليوم، وستزفين بعد أسبوع بإذن الله.

راحت الدموع تنهمر كسيل صغير على الخدين الورديين، لا تعرف الرد، ماذا تقول لهم ؟ آه يا عبدو الآن عرفت حبك الذي مات ودفنته، وستدفن حبا آخر بعد أيام. ستقول عني خائنة بعت حبك بحب آخر. ستقول كل النساء غادرات.. يا ويلي من نفسي! وراحت تبكي بكاء الطفل. ظنت أمها أن ميساء تبكي حزنا على أهلها. إنه بكاء البنات قبل الزواج.. لم تكن معترضة على ابن عمها، إنما هي خجلة من موقفها مع عبدو. فقد وافقت على الزواج وأعطته أملا ووعدا.. إنها غير قادرة على تبرير موقفها.

زفت العروس على عجل، وغاب عن وجهها الفرح والسرور، كأنها تساق لحتفها. لقد سلبوا عقلها وقلبها، وتركوا جسدها يجرونه كنعجة تساق للذبح .
كان عبدو في اللاذقية لأمور تخص الشركة، اتصل مرات عديدة ولم يجد ميساء في المكتب، عاد إلى دمشق بعد عشرة أيام، واستفسر عن ميساء ولم يحصل على إجابة من جميع العاملين .
ركب سيارته واتجه إلى ركن الدين حسب العنوان المسجل عنده. وصل إلى بيتها وطرق الباب طرقات خفيفة. خرجت أمها ورأت رجلا تبدو عليه الهيبة والوقار. وسيارة حديثة تقف على الباب. استغربت الأمر ورحبت به. بادرها بالكلام:

- أنا المهندس عبدو الشنواني مدير الشركة التي تعمل فيها ميساء، جئت أسأل عن سبب غياب ميساء .
- أهلا بك تشرفنا. ألم تخبرك ميساء؟!
- وماذا تخبرني ؟
- لقد تزوجت، وانتقلت إلى بيت زوجها .

شعر بصدمة قوية، وأحس كأن فأسا قد هوت على رأسه، أراد الرجوع إلى السيارة فشعر بعجز رجليه على المسير، لكنه سحب قدميه سحبا ليصل السيارة، أحست العجوز بعجز الرجل، نادت أولادها ليدخلوه البيت ولكنه رفض، وصل إلى سيارته، قاد سيارته بصعوبة بالغة ووصل إلى أقرب مشفى .
بقي في المشفى شهرا كاملا يحيط به أخوته وأهله جميعا، أرادوا معرفة ما جرى ولكنه آثر الكتمان. خرج من المشفى متكئا على عصا ويجر رجله اليمنى بصعوبة .
في يوم مشمس دافىء، طلب من السائق أن يوصله إلى المقبرة. وقف في المقبرة يقرأ الفاتحة على روح حبه الثاني. هناك عاهد ربه أن يبقى

وحيدا في الحياة ولن يحب بعد اليوم .
راحت الشجرة تتعرى يوما بعد يوم، بدأت غصونها تيبس، أصبحت الشجرة جذعا مشقق اللحاء جافا يابسا. هوت الشجرة بعد سنوات قليلة. ترنحت أمام الرياح العاتية، لم تصمد كان لسقوطها دويا كدوي القنبلة. كانت سماح أكثر الناس حزنا وبكاء على تلك الشجرة القوية التي صمدت زمنا طويلا تجابه رياح الخيانة والغدر.

صرخة في الأعماق

جرت العادة عند عبد العزيز أحمد القادري، أن تسير أيامه على وتيرة واحدة، ينصرف من وظيفته فيذهب إلى بيته، ليتناول وجبة الغداء، ثم ينام حتى المساء. ثم يقضي بقية يومه في اللهو والسرور والاجتماع مع الأصحاب. أنشأ مجموعة من الأصحاب المشابهين له، الذين لا يعرفون من الدنيا غير الضحك واللعب، ناسين مسؤولياتهم تجاه ربهم وأمام عوائلهم.

في سهرة امتلأت بالضجيج والصخب والمشروب، ولعب الورق والقمار، كان عبد العزيز وسط أصدقائه يترنح منتشيا مسرورا. يقف فوق رأس مجموعة تلعب الورق في بيته، وقد امتزجت أصواتهم بالضحك والهستيريا وتداخلت، حتى أصبحت لا تميز كلامهم وقد غضب أحدهم فصاح به عبد العزيز:

- العب ولا تغضب الدنيا خلقت للسرور واللعب، اضحك وانس همومك

أتبع كلامه بضحكة هستيرية مدوية.. المطر يسقط بغزارة، والجو شديد البرودة حيث الحرارة تحت الصفر، الطقس في هذه الأيام لا يؤمن جانبه، هذا هو الشهر الأول من العام. وقد احتفل عبد العزيز مع أصدقائه بنهاية العام. ليبدأون عاما حافلا بالمرح والنشاط حسب ما يدّعون. دخانهم يملأ الغرفة؛ فتبدو الغرفة كأنها مدخنة. في كل شهر تغسل أم سامر البرادي وجدران الغرفة من الدخان الأسود.

بعد الواحدة ليلا فتح الباب ودخلت جمانة، تسمرت أمام الباب وهي تبكي وتنحب، وقف أبوها يسأل:

- ماذا تريدين يا جمانة؟ تكلمي .

قالت بصوت متهدج متقطع:

- ألا يكفيك هذا السهر؟ ألا تعود إلى عقلك يا أبي؟ لما لا تصلي

وتذكر الله حتى يساعدني في مرضي؟!. يقولون عنك أنك عاص لله، لا تقرأ القرآن، ولا تهتم بأولادك. أنا بحاجة إليك.

ثم رجعت وعادت إلى غرفتها لتنام .

خجل الأب وشعر بقشعريرة تضرب جسده، ضربت جسده هزة من البرد الشديد، وانقباض بالصدر. كلام جمانة هذه المرة له وقع خاص، كانت كل كلمة سهما يخترق قلبه وعقله، سمع كلمات تأنيب من الجميع، لكن كلام جمانة شيء مختلف.

- يا إلهي ابنتي تدعوني إلى الإيمان أي عبد عاص؟

خرج الجميع من الغرفة وهم يشعرون بالخزي والعار. شعروا بضعتهم وتفاهتهم أمام فتاة لم تتجاوز الخامسة عشر من عمرها.

دخل غرفة نومه متوجسا خائفا، فشعر بالخجل من نفسه، وجد زوجته (لمى) تصلي وتدعو ربها بدموع سخية، نظر إلى وجها أحس بنور كريم ينعكس من خدودها فزادها جمالا وإشراقا .

إنها أشبه بالملاك، لأول مرة ينطق لسانه بذكر الله فينطق:

- أستغفر الله رب العظيم، أستغفرك ربي وأتوب إليك.

خرج من الغرفة باتجاه غرفة جمانة ليعتذر لها، ليسألها عن حالها فتح باب الغرفة وجدها تنام باطمئنان، ويشع نور غريب من وجهها، مثل نور وجه زوجته.. تمنى لو وجدها مستيقظة ليحضنها وليكلمها، قال في نفسه:

- مشتاق إليك يا جمانة، كيف غابت عيناي عنك كل هذه السنين؟!

هل أوقظها من نومها؟ لا سأنتظر الصباح، ما أطول هذا الليل!

رجع إلى مكان سهرته ليجلس وحيدا ويبكي بصمت خجلا من السنين الماضية، أراد أن يختصر سنوات العار ببكاء ساعة وندم ليلة.. تذكر كل أيام حياته الماضية.. هذا صوت أبيه يرن في أذنه وهو في الشباب:

- يا عبد العزيز، اعقل وانتبه لنفسك واترك السهر واللعب،

أعطاك الله شكلا جميلا وذكاء وقادا لتحمد الله، وتعبده. أنت لا تصلي، ماذا تنتظر؟ حتى صلاة الجمعة لا تخرج إليها هداك الله.. يا عبد العزيز .

ويسمع كلام أمه وهي تستشفع له:

- اترك الولد يتمتع بشبابه قليلا يا حاج.
- أي شباب يا أم عبد العزيز؟، ابنك مهندس في الثلاثين من عمره، قلت لك مرارا دعني أزوجك..

وتذكر كيف طلب من أمه أن تخطب له ابنة خالته (لمى) فتاة جميلة مثقفة تحمل شهادة جامعية ومدرسة في ثانوية البنات .

مرات ومرات يتشاجر مع زوجته، وهي تزجره وتنهاه وتطلب منه، أن يترك سهراته وجنونه ويعود لبيته وأولاده وربه. لقد كان غريبا في عائلته، لم يهتم بأولاده يوما، ولا حتى بالسؤال عنهم وعن مدارسهم. ارتفع آذان الصبح مدويا في كل المساجد، الله أكبر، الله أكبر.. كلمات المؤذن تغسل قلب عبد العزيز وهو يبكي مع صوت الآذان، يتوضأ ويخرج لصلاة الصبح

جلست لمى على سريرها تذكر ربها وتدعو.. تفكر في هذا الزوج المستهتر الذي لا يرتدع ولا يعقل، تذكرت يوم زواجها منه، عندما جاءت خالتها خاطبة لها لولدها عبد العزيز، لم تكن ترغب به، لأنها كانت تسمع بسلوكه واستهتاره وغروره، لكنها وافقت مرغمة خجلة من أمها وخالتها، لقد أقنعوها أن عبد العزيز سيتغير بعد الزواج .

لقد نشأ عبد العزيز في أسرة ميسورة غنية، عاش حياته مدللا، يهتم كثيرا بشخصيته منذ الصغر. يلبس الجديد دائما ويخرج من بيته مثل الوزير. تتسم شخصيته بالأناقة والوسامة مما جعله محط أنظار البنات دائما، يجد في ذلك متعة ولذة يتحدث عن مغامراته الكثيرة.. اعتاد على حياة الاستهتار منذ صغره وشب على هذه الحال، كان والده يأمل بتغير

أحواله بعد الزواج. عندما يجد امرأة تسره فيتحمل مسؤولياته تجاه زوجته وأولاده .
استيقظ الأولاد جميعهم ولم تستيقظ جمانة، أسرعت والدتها تستطلع الأمر دخلت الغرفة وجدت جمانة نائمة باطمئنان ترتسم على شفتيها ابتسامة عذبة وضعت لمى يدها على جبين جمانة فابتسمت لها رفعت يدها فسقطت كحجرة، صرخت لمى وانكبت على جسد جمانة تقبله.
تغيرت أحوال عبد العزيز بعد موت جمانة، ترك كل السهرات والتزم بعائلته، يصلي معظم فروض الصلاة في المسجد - سبحان مغير الأحوال- يرتفع الآذن - حي على الصلاة حي على الفلاح- ينهض عبد العزيز ليتوضأ لصلاة الصبح .

شيء من الماضي

وقف بجانب سريره يقلب بعض الصفحات في كتاب قديم، قلّب الصفحات بسرعة ثم رمى الكتاب، تناول كتابا آخر نظر إلى العنوان، ولم يفتح الكتاب، نظرت إليه نظرة تأمل و شعرت بقلقه وحيرته، آلمني منظره، السنون حفرت عددها على جفونه وخدوده، وكسا الشعر الأبيض معظم رأسه، لكنه لا يعترف بالزمن يرتدي أحيانا بنطالا من الجينز كثير الجيوب، يبدي بعض الحركات الصبيانية فنضحك؛ فيخجل ويسكت مرغما. لم أحبذ الكلام معه، فقليلا ما أكلمه، فيملّ من سكوتي حيث أقضي فراغي مع صديقي المخلص الكمبيوتر. تزجية لوقت أستفيد منه وبعدا عن رجل لا أجد فائدة في كلامه لأنه كالطبل الأجوف، لكنه وجَّه الكلام نحوي، يريد شخصا يكلمه ويعتبره فقال:

- الوقت طويل وممل، لا أعرف كيف أقطعه؟!.. أشعر بالدقيقة كأنها سنة كاملة، أي عمر هذا الذي تحصي فيه الدقائق في حياتك؟

قلت له:

- أنت الذي جعلت الحياة صعبة على نفسك يا رامي. تحسب للمادة ألف حساب، حياتك كلها مادة، تحجّر قلبك، وماتت مشاعرك.

اكفهر وجهه وشعرت بامتعاضه وقال:

- صراحتك دائما قاسية معي يا فيصل، مع ذلك دعني أكلمك عن حياتي، لعلك تغير من نظرتك تجاهي
- قل ما تريد يا رامي وسأصغي إليك .
- لقد ذقت مرارة الدهر أكثر من حلاوته، يقولون الدهر يومان، يوم لك ويوم عليك، لكنه لم ينصفني، فقد كان متحاملا علي دائما، كأنه في عداوة معي.

فقاطعته قائلا:

- هذا من وجهة نظرك، لأن حسابات الحياة لا تتم حسب مفاهيمك

فرد عليّ بتشنج:

- لسنا في قناة الجزيرة دعني أكمل..
- حسنا أكمل يا رامي .
- كنت مع والدي رحمه الله في السعودية حيث يعمل مدرسا في مدارس المملكة، ننتقل معه من بلد إلى بلد كل عام أو عامين نتعرف على منطقة جديدة، حتى صرنا نعرف أجزاء المملكة أكثر من أهلها. دخلت الثاني الابتدائي في الدراسة أي في عام ١٩٦١، أنا أكبر الذكور تكبرني أختان هما سها ودلال. وأعي الكثير من حياة أسرتي. كنا نتمتع بالحياة في البداية، لكن إصرار والدي على كثرة الإنجاب جعل الحياة تضيق علينا قليلا فقليلا، وأنت تعرف حياة المغترب يجب أن يعيش بجزء من الراتب، ويوفر قسما آخر ثمن غربته. نسكن في أغلب الأحيان في بيت من غرفتين،غرفة لنا وغرفة للوالد والوالدة.. أصبح عدد العائلة تسعة، خمسة ذكور وأربع إناث. رحت أضع اللوم على والدي الذي يحب كثرة الأولاد، وقررت في داخلي إذا ما تزوجت فلن أخلف أكثر من اثنين مهما كانت الأسباب..

حاورت والدي مرة وقلت له:

- لماذا تحب كثرة الأولاد ؟
- يا رامي عشت وحيدا ليس لي أخوة، وشعرت بالغربة في داخل نفسي. كم كنت بحاجة لأخ يسندني في حياتي. ويقف معي في أفراحي وأتراحي. الأخوة تسند الظهر يا بني .

العلاقة بين الوالدة والوالد لم تكن على ما يرام دائما، والدتي صعبة المراس أحيانا ويفتقر والدي للأسلوب المرن في المعاملة معها. وكم كنت أكره والدي عندما تمتد يده إليها ليضربها! جميع أخوتي يشعرون

بالحقد عليه. لكن مكانة الأب تجعلنا نسكت على مضض. آليت على نفسي عندما أتزوج ألا أضرب زوجتي مهما بلغت الأسباب. هذا ما حصل في حياتي الزوجية.
منذ تلك الأيام طليت قلبي بطلاء أسود، أردت أنا أجتليه ببقية عمري، لكن كنت كمن يقرع أبواب البيوت الفارغة. سقطت أشعة شمسي وغربت قبل الزوال، حملت كتبي وعدت إلى سورية لأكمل دراستي الجامعية في كلية الآداب .
في هذه الأثناء زوّج أبي البنتين الكبيرتين، سها، ودلال، لشابين من منطقة الدمام التي كنا فيها. لم أوافق على هذا الزواج في بداية الأمر. لم أتصور أن تبقى أختاي في الغربة طوال حياتهما. لكن بعد سنين وجدت أن هذا أفضل لقد كان لهما دورا كبيرا في مساعدتنا.
بعد سنة من زواج سها ودلال تزوج أبي من فتاة صغيرة من عمر بناته عندما جاء ليقضي إجازة الصيف في مدينة حمص. ذهلنا من أمر زواجه لكن هذا الزواج لم يعمر أكثر من سنتين حتى طلقها فلم تقبل أن تكمل حياتها معه. بعد أن أخذها معه إلى السعودية .
ذهبت لزيارة الأهل في منطقة الدمام في عطلة الربيع. وقد احتفل الجميع بحضوري وقضيت بعض الأيام الجميلة، لكن حدث ما لم يكن بالحسبان. كان الوالد يشكو من ضيق في صدره أحيانا وقد راجع المستوصف وأعطوه بعض الأدوية التي لا تفيد، كان يعول أمره على زيارته لسوريا في الصيف ليجري بعض الفحوصات.
بعد العصر كنا مجتمعين في ساعة سرور تغيرت أحوال أبي، وجدته متعبا يريد أن يفتح صدره بيده، حملته إلى السيارة واتجهت إلى مشفى الدمام، لكنه فارق الحياة بعد وصول المشفى بدقائق..
دفناه هناك بأرض الدمام بناء على طلب الأختين، فقد طلبتا مني أن أدفن والدي في الدمام ليؤنسهما في غربتهما. عاش وحيدا ومات غريبا، مثل

شجرة نبتت في غير أرضها، لنعزف نغم الحزن على الشفاه .
عدنا إلى وطننا عودة البائس المحزون. ارتمى الفارس من ظهر جواده بعد أربعة وخمسين عاما. كان مشتاقا لأمه كثيرا، حدثنا في الأيام الأخيرة عن أمه، يراها كل يوم في أحلامه، يحدثنا عن حلمه وسعادته برؤيتها، لأول مرة رأيت دموع أبي العصية تنحدر على خديه وهو يتذكر أمه. أيحمل قلبك كل هذا الحب يا أبي؟! لقد ظننت أن قلبه أقسى من شجرة السنديان، آه، يا حسرة في العمر لو استطعت دفنه جانب قبر والدته في حمص. عدت بالعائلة إلى أرض الوطن لنبدأ حياتنا من جديد.
كنت في الصف الثاني بالجامعة. ترك أخواي مضر وزيد المدرسة الثانوية ليعملا سائقين لسيارة شحن متوسطة، اشترتها أمي لهما من توفير أبي، صارا يعملان على السيارة بجد ونشاط يسهران الليل أيام العمل في نقل الخضروات والفاكهة ونقل الثمار، وحمل الأمتعة. كما عملت أمي في التجارة داخل المنزل حيث تشتري الألبسة النسائية من دمشق ومن لبنان وتبيعها في البيت، استطعنا تجاوز أزمتنا والحمد لله. راحت البسمة ترتسم على شفاه الأسرة بعد الحزن العميق على الوالد.
تزوج أخواي مضر وزيد، وقد سمحت لهما بالزواج قبلي، حيث أقيم فرح بسيط لهما، زفت والدتي لمضر ابنة عمي، أما زيد فقد زوجته من ابنة خالتي. شعرت أن العائلة قد استقر وضعها والحمد لله. تخرجت من الجامعة عام ١٩٧٧، وتقدمت لدراسة الدبلوم عام ١٩٧٨، كنت مندفعا للدراسة شغوفا بها يراودني حلم بشهادة الدكتوراه لأصبح أستاذا في الجامعة. تخيلت نفسي أستاذا جامعيا شامخ الرأس يشار إليَّ بالبنان.
أخذت شهادة الدبلوم بتفوق، وشعرت بالنشوة والنصر، وبدأت أحقق بعض الأماني التي راودتني في حياتي. فقد عينت مدرسا لمادة اللغة الإنجليزية في مدينة حمص. واعتمدت على نفسي في المصروف، وفي احتياجاتي ولم تقصر والدتي ولا أخوتي من ناحيتي فقد قدموا كل مساعدة

لي.. قلت مقاطعا كلامه:

- لو كنت مكانهم لما قدمت لك شيئا، لأنك ناكر للمعروف منذ صغرك هذا ما أتوقعه منك يا رامي.
- هذه طبيعتك متحامل علي دائما لا تغير وجهة نظرك من ناحيتي لكن سأكمل قصتي لك إن شئت أم أبيت .

جاءني نبأ وفاة الأخوين: مضر وزيد، في حادث سير على طريق دمشق، وقع النبأ علينا كالصاعقة. لتموت البسمة التي ارتسمت زمنا على وجوهنا.. وهَن القلب فالشوك في طريقي دائما، كلما عشقت خيوط الشمس؛ أجدها مختفية وراء الغيوم. شعرت أن الأيام المقبلة حبلى.. والأصعب من هذا تحطم قلب أمي.. أيّ عزاءٍ أقدم لها؟.

ألم أقل لك لقد تمرغت في الفشل؟، ليس ذنبي!، بل هو قدري المنحوس الذي يلاحقني ويصطادني مثل اصطياد الفراش. تحملت رزئي، وصبرت على مصابي.. أردت تكفل أولاد أخوتي ولكن أمي رفضت، أصرت أن تتكفلهم بنفسها. أخواتي المتزوجات في الدمام وضعن راتبا شهريا لأولاد مضر وزيد. ولم يقصرن في أداء الواجب.. قلت:

- لا أظن أنك تفعل ذلك، من خلال معرفتي بك أقرر: أنه لا عواطف لديك إلا نحو المادة .
- اسمح لي أن أوضح هذه النقطة، شخص مثلك لا يقدم مساعدة لأحد ولو لأمه أو أبيه .

دخل نزار إلى الغرفة وهو يسمع صوتي وقد ارتفع قليلا، وقال:

- لا بد أن حديثكما يدور حول سلوك رامي في الحياة.
- نعم، اجلس يا نزار واسمع بقية القصة.

سكت رامي ولم يرد على كلامي، لأنه يدرك قناعتي تجاهه ولا يمكن أن تتغير.

منذ صغري أحببت ابنة عمي دعد، وأشعر أنها تحبني حبا لا يوصف

بل هي تراني فتى أحلامها ولا مفر من ذلك، وأصاب بالغرور أحيانا، وجميع العائلة تعرف أن رامي لدعد، تكلم أبي بذلك مرات عديدة أمام عمي ناظم، كان يرد بابتسامة تنم عن موافقته. لكننا لم نوثق ذلك رسميا فلم تحدث خطبة رسمية، لعل العذر معنا، لأن أغلب الأقارب ينظر إلينا نظرة العطف والحسرة على الظروف التي مررنا بها.
لقد رفضت دعد كل من تقدم إليها متذرعة بأسباب كثيرة، يعرفها الجميع، من ناحيتي فقد صممت على الزواج من دعد بعد تخرجي من الجامعة. لكن نكثت عهدي بعد تخرجي.
تعرفت على مدرسة كانت معي في نفس المدرسة أعجبت بها، اتفقنا على الزواج. اشترطت عليّ أن أسكن حلب. وافقت على ذلك.. قاطعته مستنكرا:

- وابنة عمك دعد؟!

(شعرت بغليان الدم في عروقي! لكن لم أستغرب ذلك منه)

- فكرت بالأمر كانت هيام أفضل فهي مدرسة، ونستطيع أن نبني مستقبلنا بسهولة..
- صدق ظني والله، هذه طبيعة نفسك، لكنك لن تفلت من عقاب الله. فما ذنب دعد التي انتظرتك زمنا طويلا ؟، لكن صدقني لقد كانت محظوظة، لأن الله خلصها منك، كان الله في عون هيام.

بعد عام تزوجت من هيام زوجتي وهي من مدينة حلب، نقلت عملي إلى مدينة حلب، اتفقت مع زوجتي على عدم الإنجاب في الوقت الحاضر حتى نكوّن أنفسنا، وكانت هي موافقة منذ البداية على هذا الرأي .
بعد خمس سنوات من الزواج قررنا الإنجاب، فرزقنا بابنة جميلة سميناها شذا، تمنيت لو أنها ولد لقد أصبح عمري كبيرا والولد يحمل هم أبيه، سررنا كثيرا بشذا فقد ملأت حياتنا بالسرور والسعادة. قاطعه نزار بعنف قائلا:

- طبعا ستكون سعيدا، لأنك أبعدت نفسك عن أمك، وعن أخوتك، وأولاد أخوتك اليتامى، يا ويلك من الله .

تدخلت وقلت:

- دعه يا نزار يكمل حديثه لنرى العبرة منها والفائدة ماذا يفيد التقريع الآن؟.
- أكمل يا أبا أحمد قصتك وفضفض عن نفسك، قل كل ما تريد أن تقول، لأن الكلام المحزن في الصدر كالسم القاتل، إن لم تبح به قتلك.
- بعد خمسة عشر سنة من زواجي أصبح لدي ثلاث بنات، أردت الولد لكن الولد كان مستحيلا.. توقفنا عن الإنجاب، لكن الولد الذكر بقي حسرة في قلوبنا، أمل لم نستطع تحقيقه.

قلت بعد أثارني:

- هذا منك، لقد فضلت المادة على الولد، ألم أقل لك أنت تعبد المادة؟، حياتك كلها قد رسمتها على قياسك.. لكني لا أشفق عليك، بل على تلك المرأة التي أمضت حياتها معك، إنها صبورة، لا أتوقع إنسانا يستطيع أن يعيش معك. يجب أن ينظم اسمك إلى موسوعة (غينيس) لتأخذ الصدارة .

ضحك نزار ضحكة سخرية وتهكم فانفعل رامي، فرد عليه نزار قائلا:

- نعم هذه هي الحقيقة

فسكت ثم لبس ثيابه يريد الخروج فقلت:

- لا يجوز لك الهروب، لقد استمعنا لك وعليك أن تستمع لرأينا لعلك تستفيد من حكايتك، ونستفيد نحن وهذا حق لنا جميعا. لكنه خرج لا يريد سماع ما لا يريد .

حوار الطرشان (١).. الكويت : الأحد ٢٠٠٤/١١/٧

في زاوية من الكافتيريا في كلية الآداب جلسن يتسامرن بأحاديث مختلفة تهم البنات، كلما انتهين من حديث يفتحن حديثا آخر، أحيانا لا يكملن الموضوع تقاطع إحداهن الأخرى وتغير مجرى الحديث، أشبه بحديث الطرشان. واحدة منهن اتكأت على الطاولة وراحت تدندن "زي الهوى يا حبيبي، زي الهوى وآه من الهوى".. ترد الثانية بأغنية "سواح وماشي قي البلاد".. الجميع يعشقن عبد الحليم حافظ ..واحدة منهن التزمت الصمت.. وأخرى راحت تصفق وتتمايل.. جميعهن في سفينة ينقصها الربان.. قالت حلا :

- آه.. من الدكتور أحمد، لا يعجبه العجب ولا الصيام برجب. تعبت في إعداد البحث ولم يعجبه أثناء المناقشة. لابد من الأخطاء.. إنه يخلق لك الخطأ مهما كنت قويا .

وردت إخلاص:

- لكنه متمكن ومثقف، وقد وضع لي درجة جيدة في البحث، لم أجد منه ما يزعجني.. قاطعتها حلا بعصبية، اسكتي أنا أعرف طريقتك المعروفة تعطينه ابتسامة جميلة، فتسيطرين على عقله كما تقولين..

ضحك الجميع وقالت لواحظ:

- افعلي مثلها، ما الذي يمنعك يا حلا؟ واسمك حلا.. أعطيه من الحلاوة ولو القليل القليل.

ردت حلا بتوتر:

- لو أستطيع قتله لقتلته وخلصت الطلاب والطالبات من شره، يريد أن يظهر نفسه من خلال طلباته المستحيلة، انظري إلى قوائم الناجحين في مقرره، يأخذ الدرجة الأولى في عدد الراسبين في مقرره..

قالت طالبة أخرى لتدعم رأي حلا،

- نعم هذا صحيح، بعض الدكاترة يسعون إلى الشهرة من خلال التعجيز، وترسيب الطلاب دون وجه حق.. قلن لي من هي الطالبة التي نجحت عنده من الدور الأول؟ .

سكت الجميع وقد اندهشن من رأي الطالبة ضحى.

اقترب شاب وسيم من المجموعة، سلم على المجموعة بحياء شديد، رددن السلام وراحت عيونهن تلاحقه. رحبت به حلا كثيرا وطلبت منه الجلوس وقالت لصديقاتها هذا أخي نادر سنة ثالثة في كلية الهندسة، قسم الميكانيك.. رحبن به، أرادت لواحظ أن تقطع صمته، فقالت:

- ألا تلاحظ أن هناك فرقا بينك وبين حلا؟.
- ما هو؟
- أنت ما شاء الله عليك. لكن حلا لسانها طويل، لو قطعت لسانها في الصغر لخلصت من شرها في الكبر.

ضحك الجميع لكلام لواحظ، فقالت حلا..

- سأرد الكلام يا لواحظ ولكن في الوقت المناسب.

انتبه نادر لكلمة لواحظ وعرف الفتاة المقصودة التي حدثته أخته عنها.. وقال:

- لكن هذه فصاحة وبلاغة وقدرة على المحاورة،

ضحكت لواحظ وقالت:

- وهل أنت مثلها ؟
- هي أختي ولا أتخلى عنها. لكن بإمكاني أن أساعدك عليها

فقاطعته حلا بسرعة:

- تخليت عني يا نادر، آه من حواء التي تأسر الرجال!!.

لم تسقط عينا نادر عن لواحظ طوال الجلسة. تمثل شكلها ووجهها وكلامها خلسة.. بالرغم من خجله فقد أطال النظر والتمحيص والكلام..

أراد نادر جذب الاهتمام نحوه وخاصة من لواحظ .فقال:

- هل الحياة كلها دراسات وواجبات وبحوث؟ لابد من الراحة، لننس موضوع الجامعة والدراسة.. مارأيكم بالانتخابات الطلابية؟ هل أرشح نفسي؟ أعتمد على أصواتكم وأصوات الأصدقاء..

ردت عليه ضحى، معروفة بذكائها واتزانها وجديتها في الحديث والمناقشة.

- لن تنجح يا نادر لو جمعت كل أصوات الدنيا. الأفضل برأيي أن لا تشغل نفسك بهذا الموضو. انتبه لدراستك. نحن مثل الأطرش في العرس، لا نسمع ولا نرى.

تفاجأ نادر من كلام ضحى أراد أن يحرك لواحظ فقال:

- هذه سلبية في الحياة، يجب أن نكون إيجابيين

قالت ضحى:

- الإيجابيون هم الخاسرون .

اقتنع نادر بكلام ضحى.. أعجب بمنطقها، وعقلانيتها، لكنها لم تكن جميلة مثل لواحظ.

خرج الجميع من بهو الجامعة، انفرد نادر عنهن يفكر بلواحظ ، خاطب نفسه إنها جميلة ومحببة، لكنها ملسونة أكثر من حلا، وليست أجمل من ابنة عمي، ابنة العم العنيدة المغرورة، أحبها ولا تدري بي، ما عساي أن أفعل معها ؟، مغرورة أكثر من الغرور نفسه، لا تكاد تكلمني، كأني في خصومة معها، أكلمها فلا ترد علي، ابتسم لها فتقابلني بعبوسها، ماذا أفعل معها ؟! أنا أريدها، وأمي وحلا لا يريدانها، هذا حوار الطرشان، لا أحد يسمع لك، ولا أحد يفهم مشكلتك. مع ذلك لا يرى أمامه إلا صورتها، بيضاء جميلة، صافية البشرة، عينان سوداوان، الأجمل من هذا كله الشعر الغزير والجميل المرسل على الأكتاف.. لو عرفت سبب النفور بين عائلتينا لحللت هذه المشكلة. كان يمشي أشبه برجل يهذي.. وراءه صديقه يصيح به، لكن نادر لم يكن يسمع أو يرى، كان يحدث

نفسه، إنه حديث الطرشان.

كانت لواحظ تسرع بمشيتها وتقدمت على باقي الصديقات والأصدقاء صاحت بها حلا:

- لواحظ.. لواحظ.. لِمَ تجرين بسرعة؟، لا أستطيع اللحاق بك، كأنك في سباق مارتون.

ضحكت لواحظ وأجابت:

- لو دخلت السباق لفزت فيه.. آه من عيون أخيك تلاحقني، لم تترك لي الفرصة في الكلام. لقد صدته مرات عديدة وهو ينظر إلي بدهشة.. أخوك لم ير البنات في حياته..
- ماذا يفعل يا لواحظ؟ الجمال الجذاب يجذب العيون.. ربما يكون من نصيبك.. لا تعرفين ماذا يخبىء القدر لك؟!.. لقد ركبت له كشافات ليرى كل بنات الجامعة، ليختار شريكة حياته. وقد وصفتك كثيرا له، وطلبت منه الحضور ليجلس معنا في الكافيتريا من أجل الموضوع.
- يا سلام، تتصرفين بثقة عالية، وهل ستختارين رجل المستقبل بنفس الطريقة؟!
- تقريبا، لكني سأضع إعلانا في الصحف، أطلب فيه الزواج من عريس المستقبل وأضع شروطي وإملاءاتي عليه

ارتفع ضحك الصديقتين عاليا، ثم أكملت حلا:

- طموحي الزواج من رجل غني ووسيم، يحمل كل صفات الرجولة، أريده رجلا بكل معنى الكلمة.

قالت لواحظ:

- عيبك يا صديقتي، أنك تريدين جمع الدنيا كلها بيديك، أنت غير واقعية. ماذا سيكون مصيرك إذا وجدت الحب ولم تجدي السعادة؟!.

- لكن لم تقولي لي، ما رأيك بأخي نادر؟!.. أخي وسيم وجذاب، ودمه خفيف، لكنه خجول أمام الجنس اللعوب. و...

فقاطعتها لواحظ:

- غيري الحديث الآن، وتكلمي في موضوع آخر.. لم أسمع كل كلامك.. لقد شرد فكري بعيدا.. هل سمعت آخر نكتة: يقولون أن ثلاثة شباب من حماة يضربون شابا من مدينة حمص وهو يضحك، قالوا له: لماذا تضحك وقد أوجعناك من الضرب؟، قال: أعرف أنكم من الكاميرا الخفية.. ضحكت الصبيتان وقد سمع ضحكتهما الهستيرية كل من في الشارع .

قالت حلا:

- نعم أنا أكلمك في موضوع وأنت تتحدثين في اتجاه، لا تريدين أن تسمعي كلامي، حديثنا مثل حديث الطرشان .

تكرر اللقاء بين الصديقات في نفس المكان في كافيتيريا الجامعة، وقد طلبت حلا من أخيها نادر الحضور بعد الموعد بساعة.. كانت حلا تجلس بالقرب من لواحظ، وفي المقابل جلست ضحى وميثا وشخص جديد أثار انتباه حلا فقالت:

- عرفينا على الأخ ياميثا

ضحكت ميثا وقالت:

- هذا خطيب ضحى، وعلى ضحى أن تعرفك عليه

رد الرجل بسرعة وقال:

- هايل مجد الدين سعد، سنة أخيرة من كلية العلوم سأتخرج بعون الله في نهاية الفصل الثاني .

- أه يا ضحى.. تتصرفين بسكوت وصمت أنت مثل الماء الراكدة لكنها غريقة، يغرق من يعوم ببحرك، كان الله في عونك يا هايل، ستجدين العقوبة ولكن في وقت آخر.

ضحكت ضحى وبقيت محافظة على اتزانها المعروف وقالت:
- لم نعلن الخطوبة رسميا، إن شاء الله سأدعوكن بعد أسابيع لحفل الخطوبة، وأنتن أول المدعوات..

لحظات وحضر نادر، حيا الجميع.. ونظر إلى لواحظ نظرة خاصة كشفت سره أمام الآخرين. قالت ضحى:
- من سيكون السابق حلا أم نادر؟

ضحك نادر ونظر إلى لواحظ وارتد نظره بسرعة أمام نظرات لواحظ الثاقبة. ورد نادر وقال:
- هذا نصيب وأتمنى أن تتزوج أختي قبلي وأن تجد ابن الحلال الذي يليق بحلا الجميلة.

صفق الجميع لكلمة حلا الجميلة. وقالت ميثا:
- أحسدك على هذا الأخ النبيل، أين كنت تخفينه عنا ياحلا؟!.

شعرت لواحظ بغيرة في نفسها من كلام ميثا، لكنها آثرت الصمت. الصمت أحيانا من ذهب كما يقول المثل. خرج الجميع من الجامعة بعد السرور الذي غمر المجموعة الذهبية. ترافقت الصديقتان في الطريق وكل منهما في تفكير معاكس، شردت حلا بالسيارة وراحت تحلم بفارس المستقبل ومواصفاته، هل ستحقق أحلامها؟، وكم من السنين ستنتظر حتى يقبل الفارس المغوار؟.

أما لواحظ.. راحت تفكر بنادر.. وتوزنه في ميزانها الخاص.. خاطبت نفسها:
- يحب أن أتعرف عليه

قطع صمتها صوت حلا:
- ألا تسمعيني؟، أكلمك ولا تردين..، أريد سرعة الرد والتفكير من ناحية أخي نادر. إن نادر معجب بك.. ويريد الزواج منك..

طلبت لواحظ من صديقتها أن تمهلها أسبوعا، وترتب لها لقاء خاص مع

نادر، ليتعرفا على بعض عن قرب، وافقت حلا على الطلب وراحت تحضر للقاء الحبيبين المرتقبين.
في مطعم ساحري جميل وصغير، جلست لواحظ ونادر. أما حلا فقد جلست بعيدا عنهما لتفسح لهما المجال ويتحدثا بحرية. قالت لواحظ:
- ما الذي أعجبك في شخصيتي يا نادر؟
رد نادر وقد تجرأ على الكلام بعد أن ابتلع ريقه لعدة مرات:
- أشياء كثيرة، أحب السياسي الصادق الذي يعبر عن رأيه ولا يخشى الآخرين.. انظري إلى كفاح الشعب الفلسطيني ألا يحتاج إلى قيادات صادقة؟.. لكن ما الذي يعجبك في شخصيتي يا لواحظ ؟
نظرت لواحظ إلى نادر مليا، وقد تفاجأت من رد نادر الذي أجابها في موضوع آخر وقالت في نفسها:
- إما أن يكون نادر قد تعمد الخروج عن السؤال لفلسفة معينة، أو أنه لم يفهم سؤالي! كان في تفكير آخر.
تمالكت نفسها وقالت:
- عندما صادقت حلا، أعجبنتني صراحتها المتناهية التي لا تخشى لومة لائم، ناهيك عن طموحها العظيم، فهي مستعدة لتسلق أعلى القمم.. ولأني قمة أحببتها.. لكن قل لي يا نادر:
- ما رأيك بالزواج ؟ وكيف ترسم شكل حبيبة المستقبل..؟
نظر نادر إلى يمينه ورأى على الطاولة القريبة منهما رجل وامرأة تعلوهما البسمة والهمسات، منظرهما يوحي بقمة السعادة فقال:
- انظري إلى الطاولة القريبة منا بم يوحي إليك الموقف؟
- توحي بمناجاة بين اثنين بل قل بين قلبين متيمين، كأني به يقول لها: أنت لا تتكررين لأنك من النوادر، بحثت عنك في كل أصقاع الدنيا حتى وجدتك، وعندما وجدتك، دهشت، لأنك أجمل مما تصورت.

- لكن قل لي بما توحي لك همساتهما، وماذا تتوقع أن تقول له؟!

احمر وجهه.. وجد نفسه محرجا، أمامه شخصية شديدة الذكاء، أدرك أنها تريد منه كلاما غزليا جميلا، ابتسم ابتسامة بسيطة ثم قال:

- أرسطو يقول لا يوجد أصدقاء، وعندما تموت الصداقة يموت الحب، ولكن الحب مصلحة مشتركة بين عميلين..

جاء النادل ليقطع حديثهما، فقال نادر:

- قهوة ولكن حلوة

وردت لواحظ:

- قهوة مرة بدون سكر.

سكت العاشقان المختلفان بالآراء.. كان صوت فيروز يجبرهم على السكوت يمتزج بالقلب"نسم علينا الهوى من مفرق الوادي.. يا هوى.. دخل الهوى.. خذني على بلادي".. خرجا العاشقان من الاجتماع ولم يتفقا على رأي. كأنهما يمثلان اجتماعا لدولتين عربيتين.

وقفت لواحظ أمام النافذة تنظر إلى سقوط المطر، لأول مرة يسقط المطر في هذا الفصل، منظره جميل راحت قطرات الماء تضرب زجاج النافذة فتشكل أغنية رائعة ترددها لواحظ وهي تسند رأسها إلى النافذة وتفكر بنادر.

لا بأس به، الكمال لله، عقله تجاري، الحب لديه مصلحة مشتركة، وبإمكاني أن أكون مصلحته، وأستطيع السيطرة عليه في المستقبل، لن أتركه سأوافق عليه.. تناولت سماعة الهاتف.. وضربت الأرقام ببطء:

- ألو حلا.. كيف حالك.. اسمعي لقد اتخذت قراري وأنا موافقة على طلب أخيك نادر.. لتمضي أمور الزواج وفق الأعراف الاجتماعية..

كان عرسا حافلا بالضيوف والمدعوين، امتلأت الصالة حتى غصت

بالحاضرين، لم تبق أماكن للجلوس.. جلست العروس على المنصة، كأنها ملكة، المنصة عالية وقد أشرفت على جميع الضيوف.. جميع الصديقات حضرن وقد أحطن بالعروس من الجهتين إحاطة السوار بالمعصم، وقد ارتدين نفس لباس العروس.. لقد ارتدين ثوبا أبيض. وقد زخرف من الجوانب بقطعة مغايرة من اللون السكري.. رصع ثوب العروس بوردة كبيرة على صدرها.. بدأ الحفل بالتصفيق والغناء بدا الفرح على الجميع.. قطعت ميثا انتباه الجميع برقصتها الرائعة، لتعبر عن إخلاصها ومودتها لصديقتها، مما بعث الحماس في المطربة التي راحت تجود بالغناء وتردد:

مـن متـى يا نـــاس استـــوى الحـب جنـــون
مـن متـى انقلبت معـــاني الغـــرام لهيام وجنـون
من متى صارت النـــاس تـــرى الليل وتعد النجـــوم
هل يا ترى من يوم بدا قلبي يخفق والا من وصل المزيون

زفت العروس إلى بيتها الجديد، وسط فرح وحبور الجميع.. بدأت بتحقيق حلمها الوردي، طالما حلمت به منسوجا بخيوط الحرير.. لتهنأ فيه الحمامة البيضاء .

كان نادر نشيطا في الأعمال التجارية حيث ورث ذلك من أبيه، لكنه غير تجارة الأقمشة إلى تجارة الآلات الزراعية والميكانيكية.. وقد أحب زوجته حبا شديدا، لا يخلف لها وعدا، كان صادقا في حبه ووده. آثر أن يرعى شجرة زواجه بالحنان والمحبة.. أكثر الناس سرورا بهذا الزواج كانت لواحظ كما توقعت، كان زوجا مطيعا مخلصا استطاعت أن تخصه بنفسها من دون الآخرين.

راحت ثروة نادر تكبر وتنمو بسرعة وفي ظرف سنوات أصبح الرجل من كبار تجار المدينة. عاش الزوجان قمة السعادة.. لكن شيئا واحدا نغص حياتهما.. لم يرزق الزوجان بأولاد رغم مرور خمسة أعوام من

الزواج.. كانت لواحظ ترحب بصديقة عمرها وأخت زوجها حلا، وهما يجلسان تحت شجرة العنب في حديقة المنزل.. نظرت لواحظ إلى ابن حلا وتنهدت.. فهمت حلا سر حسرتها فقالت:

- ما سبب تأخركما عن الإنجاب كل هذه السنوات؟ الطب متقدم وهناك أطباء كثيرون في مدينة حلب اعرضا نفسيكما على طبيب مشهور واعرفا السبب .

قالت لواحظ :

- سأقنع نادر بعمل فحوصات كاملة مع بعضنا، سنعالج الموضوع إن شاء الله. لكن لم تخبريني بعد، ألم تتحسن علاقتك مع زوجك؟
- لا، لا زال يتجاهلني في أحيان كثيرة.. لقد قبلت الزواج به على مضض، لكن يظهر صحة المثل الذي يقول:"رضينا بالهم والهم لم يرض بنا"، تنازلت عن كل طلباتي وقبلت به زوجا، بعد إلحاح الأهل وخاصة الوالدة، التي تسعى لزواج البنت لأول عريس يطرق بابها.. لكن الذي يصبرني هو ابني، أصبح أملي في الحياة سأعمل لإسعاد ابني.. وترين الآن بطني وقد كبرت بعد حملي الثاني.. كنت آخذ حبوب مانع الحمل بدون معرفة زوجي، لكن أمي التي غيرت الحبوب بحبوب فيتامين من غير معرفتي وحصل الحمل. أحاول تقبل زوجي، أحمل نفسي على مجاملته.. إنها حال الدنيا يا لواحظ (حلا) اليوم غير حلا الأمس.

أخذ الزوجان موعدا مع الطبيب، فقد أقنعت لواحظ زوجها بضرورة التحليل المشترك للزوجين عند طبيب مشهور تعرفه لواحظ، فهو قريب لأسرتها.. خضع الزوجان لتحاليل طبية متنوعة، بعد التحليل استأذن نادر بحجة موعد مع تاجر كبير، أوصى زوجته بإحضار التحاليل ومراجعة الطبيب..

- ما نتائج التحليل يا حبيبتي؟

وندت عن شفتيه ابتسامة سخرية ويحمل بيده كأسا من عصير البرتقال أعدته الخادمة، بعد أن صحا من نوم الظهيرة .

- لا شيء حبيبي لا تتعب نفسك، انس الموضوع ودعنا نتمتع في حياتنا.
- هذا كلام جديد لقد أصررت كثيرا على مراجعة الطبيب، أريد أن أعرف الحقيقة.

أطرقت برأسها نحو الأرض ولم تتكلم، وحبست دمعات طفرت من عينيها، لكنها لم تستطع حجرها فانهمرت الدموع لتسيل على الخدين مع نحيب شديد، احتضن نادر زوجته وراح يخفف عنها.

- لماذا تبكين؟، أنت أغلى شيء عندي في الوجود. لكن أريد الصراحة يا لواحظ .

قالت وقد عاودها البكاء:

- ليت السبب مني، تمنيت أن يقول الطبيب أن السبب مني ولكن..
- ولكن قال لك السبب مني..

شعر بحزن عميق وقد تغيرت ملامحه.. ثم قال:

- هناك أدوية كثيرة

وقاطعته..

- نعم ولكن الطبيب يقول في مثل حالتك لا ينفع معه الدواء.. والأدوية قد تؤثر على صحتك وتصاب بأمراض أخرى ولم أوافق على الأدوية خوفا عليك. أنت أغلى من الولد، أنت الحبيب والروح.. سأعيش العمر كله معك، ولن أفرط بحبي وتعانق الزوجان وسط بحر من الدموع غمرت وجنتيهما.

رضي نادر بقدره، كل ما يتمناه أن ترضى زوجته بقدرها وتبقى معه لأنه لا يصبر على فراقها، راح يزيد من دلالها، اشترى لها بيتا سجله باسمها. لكن لواحظ ألحت على زوجها بإعادة الفحوصات مرة ثانية عند

طبيب آخر..وقالت هناك طبيب مشهور في مدينة حمص وهو من أقارب أمي لنذهب إليه.. ونسمع رأيه.. ربما الأطباء تختلف أراؤهم فيصيب أحدهم ويخطىء الآخر.. لكنه اعتذر لمشاغله وإيمانه بنتيجة التحليل الأول. بيد أن لواحظ لم تترك له مجالا.. ألحت عليه ورجته كثيرا حتى اقتنع وقالت له:

- لن أؤخرك عن عملك اعمل الفحوصات، سأبقى في حمص عند خالتي يومين أريح فيها أعصابي، وأسمع كلام الطبيب

ولكن الرجل خاب أمله بعد أن أعلمته زوجته نتيجة التقرير ورأي الطبيب كانت النتيجة واحدة في كلا التحليلين. أيقن نادر أن لا أمل له بالأولاد وعليه أن يصبر لمشيئة الله. وأن يظفر بقلب لواحظ التي ستعيش معه بدون أولاد.. فكر مليا ماذا لو طلبت لواحظ الطلاق؟ لا لن أتحمل فراقها، علي أن أحتفظ بلواحظ لكن بإرادتها. لم يكن يعلم أن الدهر قد خبأ له المرارة والتعاسة عندما نجح في حياته المادية.

السنوات تمضي من حياة الزوجين ويشعران بغصة تكدر حياتهما السعيدة.. عشر سنوات والزوجان دون أولاد، ساد محل الحبور والسرور الاكفهرار والألم.. وكثيرا ما كانت لواحظ تخفف عن زوجها إذا ما رأته واجما مفكرا، وتطلب منه الزواج، ويرد عليها، بأنه لا يحب غيرها. وقد قال لها مرة:

- يا لواحظ عشر سنوات من زواجنا، أشعر أني أسرق عمرك، وأقدر تضحيتك من أجلي، بل أحس بوخز الضمير، إذا أردت الطلاق، لتتزوجي من أجل الأولاد.. فأنا مستعد لهذه التضحية، لأن من يحب يعطي.. لا أريد أن أكون أنانيا، وهذه للمرة الثانية أطرح عليك الموضوع، ما زلت في عمر يكفل لك الإنجاب بإذن الله وأنت جميلة وما زلت في ريعان الشباب.. سأكون بعدك شجرة يابسة صفراء، لكنها ستقاوم حتى النهاية .

قالت لواحظ:

- لن أكون خائنة لعهدي ووفائي لك، لقد وهبتك عمرا ولن أكون نادمة، لأنك الوحيد الذي يسكن قلبي، لن أعطي هذا القلب إلا لطائر القلب.. والحمد لله، الأولاد حولنا كثيرون أبناء أخوتي، وأبناء أخوتك وأخواتك.. وسكبت الدموع الشجية لتبلل الخدين الوردين

اقترب منها وعانقها يواسيها ببعض الكلمات المؤثرة.

- ما رأيك يا لواحظ لو أمضينا أسبوعا جميلا في بيروت؟، نزور الأماكن الجميلة ونرفه عن أنفسنا، نجلس مع بعضنا بعيدا عن العمل ومشكلاته..

وافقت على الطلب بسرعة.. أحست بمدى حب زوجها لها.. وأن زوجها لن يفرط بها أبدا..

خط الشيب رأس نادر ودخل مرحلة الكهولة من حياته، لقد كبر به العمر عشر سنوات.. ومن ينظر إليه يعطيه عمر كبيرا أكبرمن عمره الحقيقي وكان يرافقه في كثير من الأحيان ليث ابن حلا، حيث يؤنس خاله، ويشاركه في العمل ويستند إليه في الأوقات الحرجة.. كثيرا ما كان يبكي في خلوته في المكتب أو البيت، يتأسى لحال لواحظ التي صبرت عليه وساعدته ووقفت معه أمام نوائب الدهر. يحمل إليها الجميل والعرفان.. ومها عمل يشعر بتقصيره تجاه امرأة عزفت عن الأولاد حبا في زوجها.. إنه وفاء نادر، في زمن يقل فيه الوفاء .

أقام الزوجان حفلا كبيرا بمناسبة مرور خمسة عشر عاما على زواجهما ونجاح ليث ابن حلا. حيث تعهدت لواحظ بحفلة خاصة إذا ما نجح في الشهادة الإعدادية بمجموع مشرف .

حضر الحفل الأصدقاء والأهل والأخوان وجميع صديقات لواحظ، وقد

أصرت عليهن بإحضار أولادهن لأنها تحب أولاد صديقاتها وتسأل عنهم باستمرار.. كان حفلا رائعا.. لقد تجدد زفاف لواحظ.. لم ينس الجميع يوم زفافها.. لن يتكرر ذلك اليوم في حياتهن حتى في زواجهن.
لا حظ الجميع تغيرا في صحة لواحظ إنها تتعب بسرعة، يميل وجهها للاصفرار، فقد بدت شاحبة نحيفة، أخذت تفقد بريقها الجذاب.. حرصت الصديقات على الإطراء والثناء كي لا يجرحن مشاعر صديقتهن، ولكنهن تهامسن فيما بينهن وقد أصابهن القلق. وأوعزن الأمر إلى ظروفها الخاصة بها من ناحية الإنجاب، لاحظ نادر خمول زوجته، وتغير في نفسيتها وقد نبهته حلا، حيث قلقت على وضع صديقتها، إذ كانت توصي أخاها كثيرا بها وتطلب منه حسن معاملتها. اقترب منها وناولها كأسا من العصير ووضع يده على كتفها، وقال:

- حبيبتي، أراك متعبة مرهقة، أتذهبين إلى الطبيب لعمل فحوصات طبية؟ صحتك لا تعجبني هذه الأيام
- لا، لا أحس بألم إنها وعكة بسيطة وتزول بإذن الله، لأنك تعرف لا أحب الأدوية ولا الأطباء.

بدأ جسم الفاتنة يذوب ويتغير لونها.. هجم عليها المرض هجوم الوحش الكاسر. أدخلها زوجها أكبر المستشفيات في دمشق، وقام الأطباء بعمل الفحوصات اللازمة للتأكد من هواجسهم .
استدعى كبير الأطباء الزوج إلى غرفته وأعلمه بحقيقة مرض زوجته، وان المرض قد نهش جسدها، واستفحل في كل أنحاء البدن ربما تعيش لشهور عديدة حسب إرادة الله، وما عليه إلا أن يكون صبورا متقبلا لأمر الله.. وقع كلام الطبيب كالصاعقة على رأس نادر.. استند إلى الجدار وهو يخرج من غرفة الطبيب ذهب إلى زوجته وهي ممدة على السرير وقال:

- الحلوة تريد أن ترى مكانتها عندي

تقدم نحو السرير وقبلها وقال:

- الأطباء يقولون: إن مرضك بسيط هو نوع من الحمى القوية، وأن الدواء سيفيد عن شاء الله ولكنه يستغرق وقتا. ستشفين بإذن الله يا لواحظ وسنلف الدنيا معا نجدد أفراحنا، لن أتركك لوحدك بعد اليوم سأبقى العين الساهرة عليك. سأعطيك الدواء بنفسي. لن أترك أحلى لواحظ في الدنيا .

تشاور مع أخوته، وأخوتها واستقر الرأي أن تجلس في بيتها وتعالج تحت إشراف طبيب، كي ترتاح نفسيا وجسديا، وراحة للزوار من الأقارب والأهل والأصدقاء

أخذ نادر زوجته إلى بيته، ترك عمله وبقي معظم الوقت بجانب زوجته كان يجلس في مكتبه في المنزل وحيدا أحيانا، يبكي على لواحظ وحظها العاثر.. ويخاطب نفسه:

- حرمت زوجتي الأولاد تقبلت ذلك بنفس رضية.. الأمر لله، لكن أن تذهب مني لواحظ !!، هذا صعب لا أستطيع تحمله.. ويلي عليك يا لواحظ

بكى بكاء مرا مثل بكاء الأطفال.. أصبحت المملكة خاوية.. الملكة لواحظ بين الحياة والموت. البيت يكتظ بكل الزائرين والباكين وخاصة أصدقاؤها بقيت حلا في البيت لا تغادره، تجلس بجانب لواحظ وتقف مع أخيها في شدته. لا حول ولا قوة إلا بالله، العبارة تترد على ألسن الزائرين.. استسلمت لواحظ بهدوء وسلمت روحها لبارئها بين يدي نادر، الذي راح يبكيها ويضعها بحضنه، لا يريد تركها وكاد يجن لشدة الحزن.. بكى الكبير والصغير على لواحظ انطفأت الشمعة التي كانت تنير البيت. أشغلت الجميع بحياتها ومماتها. كانت الجنازة كبيرة قلما شهدت المدينة جنازة مثلها، صاح احدهم بعد صلاة الجنازة:

- (هذه الدنيا لا تدوم سبحان الدايم القيوم، وحدوا الواحد الأحد).

لم يفارق قبرها ليوم واحد، طالت لحيته وكثر الشيب في رأسه أصبحت حالته صعبة يرثى لحاله، لم يستطع احد إخراج الملك من حزنه .
تداول الأهل حالة ابنهم إنه يسير من سيء إلى أسوأ لا يكاد يخرج من البيت. قال أخوه بشر:

- هذه الحالة يجب أن لا تدوم، علينا تدارك الموقف، مضى عام وما زال أخونا في تدهور وبأس .

قالت حلا:

- وماذا نفعل يا أخي؟ أشر علينا.

قال بعصبية ظاهرة:

- الدنيا لم تنته بموت لواحظ، الطيب أفضل من الميت (كان يكن كرها دفينا نحو امرأة أخيه)..
- هذه حال الدنيا، يجب أن نقنعه بالزواج شاء أم أبى.. هذا هو الرأي الصحيح وعليكم أن تساعدوني.. وإلا خسرنا أخانا الأكبر ونحن ننظر إليه، ولات ساعة مندم حينئذ. نكون قد فقدناه إلى الأبد. لا تقولوا لي إنه لا يرضى بالزواج، يجب أن نجبره على ذلك. وأنت يا حلا، لك تأثير كبير عليه ويسمع كلامك عليك أن تقنعيه، الدنيا لا تقف عند أحد، لا يهمها الصغير ولا الكبير.

شعر الجميع أن بشرا قد تحول إلى فيلسوف في الحياة، وأن كلامه كالجواهر، أخرج ما كانوا يكنونه في صدورهم. وفي الشدائد تعرف معادن الرجال. كان بشر مثل ربان السفينة الذي يتولى قيادتها في الظروف الصعبة .
استوطن الأخوة والأخوات في بيت نادر، وقالوا لن نخرج من هذا البيت حتى تتزوج، وحتى يفتح الله بيننا وبينك.. وخاطبه أخوه:

- الزوجة ستنسيك همك وتساعدك، ويبقى حبك لزوجتك لواحظ محفوظا في مكانه اطلب لها الرحمة..

هكذا أصر الجميع على زواجه بالرغم من عناده ورفضه لكنه رضخ للأمر بعد أن عجز عن المقاومة أمامهم وخضع لأمرهم وإلحاحهم .
قالت حلا ابنة جيراننا جميلة وفقيرة، تصلح لحالة أخينا يمكن أن أخطبها وأستطلع رأيهم. وقد فوضها الجميع بالأمر.. قامت بزيارتهم وعرضت عليهم الأمر وطلبوا منها مهلة ليفكروا ويردوا الجواب .

قالت الأم لابنتها:

- ما رأيك يا نجود بكلام جارتنا (حلا) إنها تنتظر الجواب.

قالت نجود:

- لكنه كبير يا أمي، أنا لا أريده، لعل نصيبي يكون أحسن، ثم إنه لا يزال في ذكر زوجته الأولى، سأكون عنده مجرد زوجة تملأ الفراغ لديه. لا لن أقبل به، حتى ولو كانت هذه رغبتك يا أمي.
- هذه فرصتك يا نجود، الزواج أفضل من البيت، انظري إلى حالتنا الصعبة، راتب التقاعد للمرحوم والدك لا يكفينا، وما أقوم به من خياطة. لم يعد يكفي، لأن متطلبات الحياة كثيرة يا ابنتي وقد تعبت.. وقد يساعدنا الرجل.. سنطلب مهرا عاليا كي يفتح فيه أخوك محلا تجاريا، لعل الله يفتح عليه وتتغير أحوالنا. قدمي تضحية من أجل أخواتك وأخوتك . والرجل لاعيب فيه وهو من عائلة مرموقة.

قبلت نجود الزواج. لم تستطع مقاومة ردود أمها، رأت الواقع المزري لحالة أهلها، داست بقدمها على أحلامها واستعدت للزواج .
قدم نادر لزوجته الجديدة مهرا كبيرا، وهدايا كثيرة، واشترت حلا للعروس الجديدة كل متطلبات العروس وألبستها الثياب والذهب.. لقد أخذت أكثر ما حلمت به .
كان حفل الزواج بسيطا، حسب رغبة نادر أخذ عروسه إلى اللاذقية ليمضي أيام العرس بعيدا عن الناس وللتمتع بالمناظر الجميلة.. عامل

نادر زوجته بكل احترام وتقدير واستطاع أن يفرض احترامه ومحبته على نجود.. وجدت نجود في زوجها الصفات الجميلة.. واستطاعت بذكائها أن تتغلب على فارق السن بينهما. لكن مسحة الحزن تكاد لا تختفي من وجه نادر، يخلو لساعات في مكتبه يتذكر الأيام الماضية مع لواحظ. لم يخبر نادر زوجته الجديدة بواقعه من ناحية الأولاد ولم يقل لها أنه عقيم، آثر السكوت حتى يجد الفرصة المناسبة كي يصارحها بحقيقة الأمر .

كانت نجود تأخذ حبوبا لمنع الحمل، واستمرت على هذه الحال أكثر من عام وقد سألتها أمها عن أسباب عدم حملها فصارحتها بأنها تأخذ حبوب منع الحمل، غضبت أمها واتهمتها بالغباء. كان عليها أن تنجب ولدا كي يحظى بورثة أبيه بعد عمر طويل لزوجها، ودعت له بطول العمر لأن الرجل لم يقصر معهم، فقد كان طيبا أكثر من اللازم. رمت نجود الحبوب، وامتنعت عن تناولها وراحت تنتظر الحمل بفارغ الصبر.

لم يمض شهران حتى شعرت نجود بوعكة صحية وصداع في الرأس، ذهبت مع أمها إلى الطبيب فأخبرها بأنها حامل في الشهر الثاني.. زغردت الأم وراحت تقبل ابنتها وعادت مع نجود إلى البيت لم تتمالك نجود نفسها من الفرح. أخذت الهاتف وراحت أناملها تعزف على الأرقام لتزف البشرى لنادر.

- ألو نادر.. نعم يا نجود ماذا تريدين أنا في العمل؟.. أريد أن أبشرك ببشرى عظيمة..
- بشرى عظيمة!، خير إن شاء الله..
- فكر..

فكر مليا لقد ماتت البشرى لديه من سنوات لم يعد هناك ما يفرحه

- اسمعي يا نجود لا وقت لدي للمزاح والدلع! اطلبي ما تريدين.. ولكنني واثقة من البشرى وأنها ستفرحك، لن أبوح بها حتى تأتي

إلى البيت. أنا في انتظارك.

- تخيلت نجود دخول نادر وتلقي عليه النبأ فيغمى عليه من الفرح قالت لها أمها أخبريه بالتدريج، سيحملك في أحضانه ويحلق بك في السماء، سيقيم حفلا كبيرا يدعو إليه جميع الناس .

ركب نادر سيارته واتجه إلى البيت، وراح يفكر بالبشرى.. أي بشرى؟ شيء يتعلق بأهله، بأخته حلا.. لا لو كان كذلك لأخبروه مباشرة. بعد موت لواحظ لم يعد يفرحه شيء.. الأولاد وقد حرم منهم .

دخل البيت.. ورأى زوجته مبتسمة وبجانبها أمها، جلست لاستقباله وقالت له:

- هل تتحمل البشرى؟!
- نعم، ولك مني ما تريدين، لن أبخل عليك بشيء..

أشارت إلى بطنها.. لم يفهم قصدها.. قالت:

- هنا في بطني مولود.. أنا حامل
- ماذا ؟! ..
- أنا حامل يا نادر..

تغير وجهه وامتقع لونه، وراحت يداه ترتعش وتمتم كلمات غير مفهومة.. توضحت بعد قليل بصوت مجلجل،

- كيف تحملين ؟ من أين أتيت بالحمل؟، هل مارست الحرام؟ أيتها المعتوهة كنت أظنك شريفة طاهرة.. بغية في بيتي!، أين تذهب من الناس والإشاعات يا نادر.. لهفي على نفسي..

استند على كرسي قريب. جلس عليه وقد وضع رأسه بين يديه. وقعت الكلمات وقع السهام المسمومة في قلب نجود وراحت تصرخ..

- أتتهمني بشرفي أيها الوغد.. إنه ابنك. يا ويلك من اللهّ ألا تخاف رب العالمين وأنت تتهمني بشرفي.. أنت مريض نفسيا، اذهب وعالج نفسك.. كررت أمها نفس الكلمات، وقالت عد إلى عقلك

يا بني، واستغفر الله

لكنه ثار بوجهها وقال:

- خذي ابنتك واخرجوا من البيت، سأقيم دعوة على ابنتك أتهمها بالخيانة؟

قالت أمها

- وما دليلك أيها الأحمق
- نعم الدليل عندي قوي، أنا رجل عقيم، طوال عشرين عاما لم أنجب أطفالا من زوجتي وكل التقارير الطبية تثبت ذلك.

أصيبت الأم بالدهشة وعقدت المفاجأة لسانها ولم تعد تستطيع التكلم، أخذت ابنتها وخرجت من البيت، وراحت الأم تدعو عليه هي وابنتها وتطلب من الله أن ينتقم لها ولابنتها، فقد أقسمت البنت أغلظ الأيمان أنها شريفة، وأن الحمل من زوجها .

انتشر الخبر بين الأهل والأقارب انتشار النار في الهشيم، وراح كل شخص يدلي بدلوه، قال أخوه بشر:

- لا نستطيع أن نحكم على المرأة بالخيانة، الطب متقدم ويثبت كل شيء ليفحص أخي نفسه مرة أخرى عند أطباء آخرين وكما يقول المثل (الماء تكذب الغطاس)

لكن نادر عاند الجميع وأصر على الطلاق وتقديم شكوى بحق زوجته، وأخته تترجاه وأخوه يمانع. يطلبان منه الانتظار حتى تلد المرأة .

دخلت نجود شهرها التاسع وهي محتسبة أمرها إلى الله، ليثبت براءتها مثلما برأ عائشة من حادثة الإفك وبرأ الذئب من دم يوسف .

دخل نادر غرفة لواحظ، وفتح خزانتها، حيث كانت الغرفة مغلقة ووجد صندوقا صغيرا فتحه ووجد مجموعة من الصور.. ابتسم لصور لواحظ وهي تضمه في الصورة ونزلت الدموع من عينيه وتذكر وفاءها وإخلاصها له في حياتها.. وراح يستعرض الصور صورة صورة وبقي

ساعات أمام ذكرياته القديمة. وجد مغلفا وقد لصق من جوانبه فتح المغلف وجد في مجموعة من الأوراق استرعت انتباهه، إنها تحاليل طبية تخص لواحظ.. تمعن في التحاليل وركز نظارته الطبية.. التحاليل تثبت أن لواحظ كانت عقيمة لا تنجب..

يا إلهي.. السبب كان من لواحظ وقد أوهمتني في كل السنين الماضية أني عقيم.. ضرب الصندوق بيديه، تناول صور لواحظ وراح يمزقها بيديه. وراح يخاطبها:

- لماذا يا لواحظ ؟!، أهكذا يكون الحب؟ لقد أعطيتك حياتي وروحي.. أي وفاء هذا؟ لا يوجد وفاء في الدنيا .

ركب سيارته مسرعا وتوجه إلى أخيه بشر وأخذه معه، ثم توجه إلى حلا واتجه الثلاثة نحو نجود.. كانت نجود في مستشفى الولادة.. عندما وصلوا المستشفى وجدوا نجود ولدت غلاما جميلا شبيها بأبيه.. قبل رأسها وطلب منها السماح.. لم تتكلم لكنها ابتسمت له أخذ ولده وضمه إلى حضنه ودموع الفرح تسبقه، أقام حفلا كبيرا لاستقبال نجود. واعتذر لها وقف الجميع في صورة تذكارية يتبادلون حمل الطفل.

نظر إلى زوجته وقال:

- ماذا نسميه؟
- الرأي رأيك
- سأسميه على اسم أخي بشر. ليكن بشرى خير كما أردت يا نجود.

حوار الطرشان (٢)

لم تغب روح لواحظ عن جميع محبيها، بقيت الصديقات يتذكرنها في كل مناسبة، أكثر الناس حزنا كانت حلا التي لم تنس لواحظ في يوم من الأيام، تأست لوضع أخيها لكنها لم تحقد عليها، بررت ذلك من شدة حبها لنادر.. قالت تخاطب أخاها وترجوه أن يصفح عنها:

- أنا أكثر الناس معرفة بلواحظ، تحب بصدق وبقوة، وتكره بصدق وبقوة، لواحظ لا تعرف الحلول الوسط أبدا، أرجوك أن تسامحها لترتاح في قبرها.

رد عليها نادر:

- من يحب يعطي ولا يحقد. وأنا أحببت لواحظ، وقد سامحتها أمام ربي، لتستقر روحها في الحياة الأبدية.. لن أنسى لواحظ أبدا كانت الأم والأخت، والحبيبة والعشيقة، لم نفهم بعضنا في البداية، كانت في واد وأنا في واد أعترف بذنبي يا حلا.. اهتممت بجمع المال.. هربا من الواقع، وتعويضا من حرمان الأولاد، ونسيتها.. لم أدرك أن لواحظ تحتاجني.. أعترف أنها قد أعطتني الحب وأعطيتها المال، والإخلاص، والوفاء. دللتها على كل النساء، أعطيتها ثقة، لم تأخذها امرأة في حياتها. سامحك الله يا لواحظ.. لقد سامحتها، لكن هل تسامحني لواحظ وهي في قبرها؟ أمس زرت قبرها وقرأت لها الفاتحة ودعوت لها بالرحمة. اللهم ارحم لواحظ وأسكنها فسيح جناتك..

اغرورقت عيناه بدموع الحزن التي راحت تغسل درن القلب، وما علق بالنفس.. ليث كان أشد الناس حزنا عليها، لم ينس اهتمامها به، وعطفها عليه، حيث كانت تعامله كأمه.. لم تغب عن باله الحفلة الرائعة التي أقامتها بمناسبة نجاحه في الإعدادية، وعيد زواجها.. هذا العام سينجح في الشهادة الثانوية، وسيحرص على مجموع جيد فقد وعده خاله بالمساعدة، وعده بالدراسة في الخارج. قال له خاله:

- ادرس يا ليث، إذا نجحت بنسبة جيدة سأرسلك إلى فرنسا لتدرس الطب هناك، ولتختص بالعقم والأمراض النسائية، لتكن عونا لكل امرأة بحاجة إلى طفل يملأ حضنها بضحكة بريئة.

زاد ليث من اهتمامه ودراسته ليحقق طموحه.. دعت حلا جميع صديقاتها إلى بيتها كما جرت العادة لديهن، في كل عام مرة أو مرتين، فقد حرصن على بقاء الصلة الوثيقة، وربط الوشائج. كن يأتين مع أزواجهن، كانت حلا لا تحب اصطحاب زوجها معها، لم يكن الزوجان متفقان، بقيا كل السنين الماضية مختلفان بكل شيء، كان صعب الانقياد والطاعة، كانت حلا قوية المراس، صعبة في العناد.. لا تتنازل عن رأيها مهما كلفها الثمن. لم يكن زوج حلا سيئا إلى هذه الدرجة، لكن الزوجين لم يتفقا من بداية حياتهما، لم يكن نشأت يمثل طموحات حلا حسب رأيها، فقد كان قنوعا يكتفي بوظيفة الدولة، بالرغم من شهادته العالية في التجارة والاقتصاد. لم يحاول أن يحسن أحواله الاقتصادية، بل يكتفي براتب الوظيفة، وكانت حلا تريده أن يتحرك ويحاول تغيير حياته، إضافة إلى تزمته في كثير من الأفكار فقد كان عصاميا إلى أبعد الحدود.. حول البحيرة الجميلة في البيت المتواضع الذي تملكه حلا، وقد زينته ورتبت مكان الجلوس، حيث كانت مغرمة بالنقوش والرسوم، والأشياء الأثرية.. قال هايل مخاطبا نشأت زوج حلا:

- لديكم حديقة جميلة يا أبا ليث تثير مشاعر العاشقين .

ضحك نشأت ضحكة ساخرة وقال:

- نعم، لكن أين العاشقين؟ أنا أظن أن كلمة العشق غير موجودة إلا في القواميس. لكن معنويا هناك عشق للحياة، عشق للمثل، عشق للمادة الأهم من كل ذلك عشق للإيمان وأنا من أهله. لذلك لا أحسب لترهات الحياة حسابا، وهذا ما جعلني في صدام مع أقرب المقربين.
- أوافقك الرأي يا أبا ليث، الإيمان اطمئنان للنفس، ومبعث كل عطاء..

لكن الصدام لا يفيد أحيانا فلابد من المرونة دون التنازل عن المبادىء

لاحظ النسوة اندماج الرجلين في أحاديث كثيرة، متشعبة وخاصة عندما دخلا في السياسة، الحديث هنا لا يعجب النساء، تجمعن مع بعضهن وغرقن في أحاديثهن الخاصة. ثم قطع هايل ثرثرتهن بقوله:

- كنا نتمنى لو حضر زوجك يا ميثا، لشكلنا حلفا أطلسيا مضادا لحلفكن..

لكن ميثا الذكية أحسنت الرد:

- نحن لا نستغني عنكم، أنتم القيادة ونحن الشعب

ضحك الجميع، وقالت:

- لقد سافر لرؤية أمه المريضة .

قال هايل:

- سمعت أنه مرشح لمنصب كبير في المدينة، أرجو أن لا ينسانا، ولا يبتعد عنا إذا ما وصل إلى هذا المنصب.. أنا من رأيي أن نشكل جمعية باسمنا نسميها جمعية الأسرة السعيدة، مهمتها نشر السعادة بين الأسر ومساعدة الأسر المحتاجة والأطفال، هذه الجمعية ستكون نواة لجمعية كبيرة نستصدر لها الموافقة من الدولة. نعرض فيها خبراتنا في السعادة، ونحن والحمد نتمتع بهذه السعادة

أعجبت الفكرة الجميع وتحمست لها حلا، قالت:

- من يتولى إدارة الجمعية؟

قال هايل:

- حاليا، لتكن حلا مديرة الجمعية ريثما تكبر الجمعية، وتكون إدارة الجمعية بالانتخاب .

وافق الجميع على الفكرة واقترحت حلا أن تضم الجمعية حاليا أخاها نادر وزوجته، سر الجميع لهذا الطرح.. أحضرت دعاء القهوة، دارت بها على الجميع، كان هايل مغرما بالقهوة، ارتشف هايل قهوته بتذوق

مع السيجارة التي لا تفارق فمه، وقال:

- شكرا لك يا دعاء على هذه القهوة، أشعر بنكهتها الجميلة، إنها تذكرني بقهوة أرتشفها في بيروت، لها طعم خاص محبب

قالت حلا:

- وقهوة ضحى..

استدرك وقال:

- طبعا وقهوة ضحى لم تدعيني أكمل حديثي

ضحك الجميع، خاصة من قول ضحى:

- أنتم أيها الرجال جاحدون للمعروف

انتهت السهرة بعد الاتفاق على إقامة الجمعية. كان هايل نجم هذه السهرة. حاز على إعجاب جميع الصديقات إلا زوجته التي راحت تعرف مكنون زوجها، حيث بدأت العلاقة تتوتر في السنين الأخيرة، عمل هايل بتجارة المحركات الزراعية، وقد فتح مكتبا للاستيراد، دأب على التنقل الكثير والسفر المفاجيء من أجل تأمين بضاعته من الأسواق الأجنبية وخاصة بيروت ،لا يكاد يمضي أسبوعان أو ثلاثة حتى يتجهز للسفر. في وقت أصبح أولاده في حاجة إليه، في تحمل مسؤولياته. زاد من تنافر الزوجين التراجع في التحصيل العلمي للأولاد في المدارس حيث أخذت تحمل زوجها مسؤولية ذلك، لم تحقق ابنتهما الكبرى المجموع المناسب الذي يؤهلها لدخول الجامعة. لكن الرجل يبدي عذره في ذلك، لولا سفره لما حقق لهم الرفاهية في الحياة، وتحقيق مطالبهم. كما أن هايل أصبح يكثر من المثاليات في حديثه مع الآخرين وهو أقل التزاما بها. إلا إن ذكاء الزوجين وحرصهما على بعض يجعلهما يتناسيان الكثير من المنغصات كأنهما اتفقا ضمنيا أن يتقبلا بعضهما حسب الواقع، طالما أن الأمور لم تسوء إلى حد كبير، يحملان لبعضهما الاحترام. كما أن الرجل كريم مع زوجته وأولاده، يغدق عليهم من الهدايا والمشتريات خلال سفراته. قال

هايل لزوجته:

- جهزي أغراضي غدا أسافر إلى بيروت بعون الله، لدي بضاعة يجب أن أستلمها من هناك.

قالت ضحى:

- لو سكنت بيروت وتزوجت هناك لكان ذلك أفضل من هذا التعب
- وهل يمكنني أن أصبر على مفارقة زوجتي وأولادي؟!!..

مضى على زواجنا أكثر من عشرين عاما، في كل عام يزداد حبك في قلبي. ضحكت ضحى وقالت:

- نعم، أكثر من الكلام المعسول. أنا أريدك أنت، لا أريد الكلام المبطن.

ابتسم وغادر المكان.. وقف الجميع في المطار لتوديع ليث المسافر إلى فرنسا لدراسة الطب، كانت حلا شبه منهارة من الحزن على فراق ابنها الوحيد. شعرت كأن الزمن بدأ يسرق منها السعادة المتبقية لديها، فقد كان ليث ابنا وصديقا لها، وقف نشأت بجانب زوجته وقد حرص على مسك يدها، يريد التخفيف من حزنها.

كانت لحظات الوداع صعبة للغاية للوالدين، ولنادر.. اقترب نادر من نشأت وحلا، قال مواسيا:

- يجب أن تصبرا، ليث سيكون فخرا لنا سيحقق مجد نفسه ومجد عائلته، ادعوا له بالتوفيق، تعرفون مكانة ليث عندي

تعانق نشأت ونادر، كان نشأت يحمل ودا كبيرا لنادر، لم يجرح الرجل شعوره يوما، رغم الخلافات الكثيرة مع أخته. لم ينس مساعدات نادر الكثيرة لعائلته.. بدأت الجمعية تكبر ويزداد أعضاؤها، تتلقى التبرعات لمساعدة العائلات الفقيرة، لم الشمل لبعض العائلات، كانت حلا مديرة ناجحة، حازت على إعجاب جميع أعضاء الجمعية. بدأ نجم الجمعية يصعد، وتشتهر في كل مكان في المدينة. وقد أعدت حلا برنامجا تثقيفيا للأسر في الأحياء الفقيرة. من محاضرات ومنشورات. كانت تكتب

لابنها ليث كل خطوات الجمعية، وجدت في الجمعية مجالا لعمل الخير في أوقات فراغها. حيث تقضي نصف نهارها في المدرسة الثانوية القريبة من حييها، تمارس التدريس.. آثرت حلا بعد غياب ابنها الانسحاب من المعركة مع زوجها، فقد أصبح الزوجان في عمر لا يتناسب مع عمر الأولاد، وخاصة بعد أن أوصاها ليث، فقد كان يحب أباه كثيرا .

اجتمع أغلب الأصدقاء في بيت نادر بمناسبة عيد ميلاد ابنته لواحظ، حرص أن يكون هذا العيد مميزا بكل ما فيه، عارضت زوجته في البداية ولكنه أقنعها، فهي تدرك مدى إخلاصه، ووفائه، وحبه لها.

حضر الجميع، شاركوا في الحفل والغناء. تذكرت النساء لواحظ وترحمن عليه. لا حظ الأصدقاء تغيب ميثا عن الحضور.. قال هايل:

زوجها لا يحضر يظن أنه أكبر منا، خاصة بعد أن أصبح مسؤولا كبيرا.

(طلبت منه زوجته السكوت ولكنه تابع الكلام) بعض الناس عندما يستلم منصبا كبيرا يظن أنه أصبح شيئا مهما، علما من ناحيتي، أنا لا أبيعه ولا أشتريه، سمعته منحطة في كل البلد، حتى ميثا أظن أنها حرجة وخجلة من تصرفاته السيئة.. من شرب للخمر، وعلاقات نسائية ورشوة و.. لا أريد أن أذكر الباقي.. غضبت زوجته وقالت:

- يكفي إكراما لميثا
- نعم تستحق التقدير والاحترام .

الجميع يعرف أخلاق زوج ميثا السيئة علما أن علاقته في البيت حسنة ولكن مسموعاته في البلد مشينة وفضائحه كثيرة حدث ولا حرج.. قطعت ضحى الكلام، وقامت بتقديم هدية إلى البنت الصغيرة لواحظ .

طلب هايل من زوجته إعداد متاعه البسيط للسفر إلى بيروت، طلبت منه زوجته البقاء معهم هذا الأسبوع وافق على طلب زوجته بكل رحابة صدر، عندما أراد السفر بكت ضحى ولأول مرة تبكي، عندما رآها

تبكي ألغى سفره، أمضى الزوجان الأسبوعين في هناء وسرور. أحست ضحى بقمة العواطف الجميلة تنساب من هايل، كانت كلماته لها كلحن جميل، قالت له:

- أريد أن أضع آلة تسجيل، لأسجل كل كلمة جميلة.. كأني أسمع كلماتك لأول مرة. إنها مثل تغريد الطيور

في الصباح حمل أغراضه وركب سيارته متجها إلى بيروت بعد أن ودع الجميع. بعد ثلاثة أيام من سفر هايل، رن جرس الهاتف بقوة.. شعرت ضحى برنين يفزع القلب، لم تستطع يداها أن تلمس الهاتف، راح جسمها يختلج ويداها ترتعش، وقالت:

- اللهم اجعله خيرا يارب.

تناولت ابنتها الكبرى سماعة الهاتف، الصوت بعيد وغريب، سألها:

- هذا بيت هايل مجد الدين سعد
- نعم

ارتعدت فرائصها، قال:

- هايل عمل حادثا في السيارة وهو في المستشفى في حالة سيئة وسنحضره غدا إن شاء الله إلى سوريا .

امتلأ البيت بالصراخ والعويل، لقد أصيب الجميع بالصدمة والذهول كان الموقف صعبا، انتشر الخبر بسرعة في أرجاء المدينة.

في اليوم الثاني حضرت سيارة لبنانية تحمل النعش وقد لف بالورود، يرافق النعش فتاة في مقتبل العمر ومعها شاب أصغر منها يبدو أنه أخوها. اختلط الحابل بالنابل فقد سيطر الحزن على الجميع، كانت ضحى في انهيار نفسي، كأنها مست بجنون، بكت الفتاة بكاء يقطع القلوب وارتمت على الأرض، لكن الشاب هدأ من روعها ورفعها إلى أعلى، استغرب الناس الموقف، كانت الفتاة تشبه ميساء أخت هايل، أقسم كل من رأى الشخصين أن الشاب صورة عن هايل. تبادل الناس شائعات

كثيرة. بعضهم قال:

- هذه أخته جاءت من مدينة ثانية

من يعرف العائلة قال:

- هذه ابنته من زوجته الثانية في بيروت .

اقتربت امرأة عجوز من الفتاة وهدأت من روعها، وقبلتها، ثم قالت:

- ما علاقتكم بالمرحوم هايل؟

لم ترد الفتاة على السؤال. اكتفت بالسكوت. قالت العجوز الوقت غير مناسب، جهزوا مكانا لهما ينامان فيه، لكن العجوز صممت أن تعرف ذلك في الليل أو في الصباح. إلا إن الأخوين انسحبا بهدوء، بعد صلاة العشاء ولم يشعر بهما أحد، سافرا إلى بيروت، لم يوضحا لأحد سرهما تركا الأسئلة المحيرة على شفاه الجميع، أيقنت ضحى أن زوجها ربما يكون متزوجا في بيروت ولم يعلمها. شعرت بنار تستعر بقلبها، لكنها أخمدت النار، فالموقف لا يحتمل الظنون، طلبت الرحمة لزوجها ولم تسمح لأحد أن يتكلم في الموضوع. لكنها صممت أن تعرف الفتاة والشاب في يوم من الأيام، لا بد أن تظهر الحقيقة. الزمن لن يخبىء سرا لديه. أحاط الجميع بضحى يعزونها ،خاصة أعضاء جمعية الأسرة السعيدة. ثمة أشخاص من أعضاء الجمعية، رجالا ونساء، قرروا مواجهة الحياة، وعدم الانهزام وقد صمموا على بعث السعادة في نفوس الأسر، وإن حرموا منها أو بالأحرى فشلوا في تطبيق المثل العليا في أسرهم. وقفت ميثا وقد شدت من نفسها كأنها تثبت وجودها وتصميمها على التحدي وقد أمسكت بيد حلا من جهة وبيد ضحى من جهة أخرى. سلمت حلا إدارة الجمعية لامرأة فاضلة من الجيل الجديد، لتدب الحياة في الغصون وتجري الدماء في العروق، فقد آن الأوان للقدماء أن يستريحوا من عناء الدرب الطويل. قالت حلا:

- سأتفرغ لأولادي وسأنتظر عودة ليث من فرنسا بفارغ الصبر.

آه يا زمن

في مزرعة عمها الجميلة التي تقع شمال حلب، جلست لارا وقد أسندت ظهرها للشجرة القوية، التي راحت تتحدى الزمن، تغرس جذورها في الأرض فتزداد تشبثا بالحياة، وتمتد غصونها لتعانق السماء.. لا زالت المعركة طويلة مع الحياة، كلما زاد عطاؤها نجت من فأس الفلاح، وكلما عمقت جذورها صمدت أمام الرياح الهوجاء.. تحكي الشجرة لكل شخص يستريح في ظلها، أو يأكل من ثمارها حكايتها مع الزمن.. كأنها تقول: الصبر مفتاح الفرج. راحت تنظر إلى الشجرة، التي تعملقت وشمخت بأنفها تفاخرا وعزة.. همست لارا في أذن الشجرة:

- أنا وأنت متشابهتان، لعلي قوية مثلك، لم تقتلعني الرياح العتية كنت كصلابتك في العزيمة والاقتدار

ابتمست للشجرة ووضعت يدها تتلمس لحاءها بحنان. اقتربت منها نعمت ابنة عمها مبتسمة وقالت:

- بم يفكر الجميل؟ لقد شرد الغزال بخواطره بعيدا.. ما أسعد ابن الحلال الذي تفكرين به!. هل يمكنني أن أعرفه ،أو أعرف بعض صفاته.؟!

ابتسمت لارا وقالت:

- لازلت بعيدة التفكير عن هذا الموضوع، لأني موصدة قلبي وأحكمت إغلاقه حتى أحقق كل أهدافي. نظرت إلى الشمس وهي تنحدر من كبد السماء، كأنها تريد إنهاء يوم طويل.
- هل أعجبك الغروب؟
- نعم، الغروب جميل، فاصل زمني يوحي بالاستراحة من عناء يوم طويل. لكن الشروق أجمل. فيه تبدأ الحياة دورتها من جديد ليبدأ الإنسان جولة من العطاء والنشاط .

- إذا أنت تفكرين في موضوع آخر ربما أعرفه، لكن لا أريد أن أحرك مواجعك، وأوقظ آلامك، لكني أقول لك: اتركي أمورك للخالق، وتمتعي بيومك الجميل معنا .
- أتعرفين يا نعمت ؟! أنا مثل هذه الشجرة، أزداد مع الأيام صلابة وقوة، لقد علمتني الأيام أن أكون قوية صبورة، إن آلامي لم تنم حتى تستيقظ، ولم تمت حتى أدفنها.. حلمي الوحيد بعد أن أنهي دراستي في الطب، أفتش مع أخي عن أمي.

سقطت الدموع من عينيها..

- صورة أمي مطبوعة في قلبي عندما كنت صغيرة في السادسة من عمري، عندما اختلفت مع أبي، راح يضربها كالوحش، خرجت ولم تعد حتى يومنا هذا.. عادت إلى بلدها في لبنان هربا من معاملة والدي القاسية لها.. كان يضربها على كل شيء. كان أسدا على أمي الغريبة.. ودجاجة مع امرأته التي تزوجها بعد أمي. لا بد من يوم ألتقي مع أمي، أنا وأخي، نرتمي بحضنها، ونقبل رأسها، أتجدينه حلما مستحيلا يا نعمت؟! طال الزمن أو قصر سأعرف صورتها وشكلها إنها تشبهني كثيرا، حسب قول أبي لي عندما سألته عن أمي.
- لا ليس مستحيلا، ستجدين أمك إن شاء الله، لكن خففي من حقدك على والدك، إكراما لأبي.. أليس أبوك أخاه ؟
- بلى، عمي هو والدي.. هو من زرع الحنان والدفء في قلوبنا، لقد أنقذنا من براثن تلك المرأة الشريرة، زوجة أبي .
- لكنها مريضة، وعلى فراش الموت، اشتد بها المرض عندما زرناها أمس..نظرت إلى وجوهنا، كأنها تنتظر قدومك مع أكرم، لاحظنا ذلك من عيونها.. فقدت عيونها الجمال الذي سحر والدك وأظن فقدت سطوتها عليه.. صدقيني يا لارا، الحقد يهدم ولا

يبني.. ولا يشفي الصدر، وحده التسامح الذي يريح النفس..

- كيف أنسى يا نعمت؟!.. أأنسى أمي التي طردت من البيت بسبب تلك المرأة؟، لقد أحبت أبي واشترطت عليه طلاق أمي..، بدأت رحلة العذاب بعد ذهاب أمي، أعلنت الزوجة الجديدة لأبي الحرب علينا، لم يدافع الوالد عن أولاده، التزم الصمت، ترك امرأته تتحكم بأولاده حسب هواها. مرة خرجت من الغرفة إلى المطبخ لأحضر طعاما لأخي ياسر، أخذت الطعام مني وأعادته إلى البراد.. متذرعة أن الطعام على العشاء فقط. وقالت لي: دعيه يجوع ليتعلم النظام، بقي الطفل يبكي طويلا يريد الطعام.. أم أنسى أخي يامن، الذي مات بسببها.. ذرفت الدموع بسخاء وبحزن.. أية امرأة تلك التي تقتل الطفولة والبراءة؟. لا زلت أذكر رغم صغري عندما أمسكت لعب أخي الصغير وحطمتها بحجة أنها توسخ البيت، بكى الطفل بكاء مرا تنفطر له الجبال كانت تغلق الغرفة علينا في الليل ومرة أراد الصغير الخروج إلى الحمام، طرقت الباب بقوة، فتحت الباب قالت ماذا تريدين؟ قلت أريد أن آخذ أخي إلى الحمام ليتبول.. صرخت بوجهي بصوت مزعج ورفست الصغير على بطنه بقوة، ثم راحت تقرصه في أنحاء متفرقة من جسده وهو يلتف حولي وعندما حاولت حمايته قامت بضربي، وقالت له: هيا نم.. لم نستطع الكلام مسك الصغير بطنه حتى الصباح.. عندما استيقظنا من نومنا وجدناه في حالة صعبة توفي في المستشفى بعد تمزق المثانة.. لم يحس الوالد العزيز بظلم امرأته، أغمض عينيه واستسلم لكلامها وتفسيرها.. كيف أنسى؟ كانت تغار مني ، لأني الصورة الجميلة لأمي، يكفهر وجهها إذا ما وجه أحد إطراء لي أو لأخي .. لن أنسى السنوات الصعبة التي عشناها، لقد أدركت

أن صوتي المكتوم سيدوي يوما، وينطق الحقيقة ويفضح امرأة بغية، اسمحي لي يا أختي فهذه هي الحقيقة.. لولا عمي الذي أصر مع جدتي على أخذنا من والدي بعد أن هدده بالشكوى على امرأته لما انتهت تلك المحنة.. ما قلب تلك المرأة وهي تمزق كتبي ودفاتري؟.. لن أنساها ما حييت، لن أسامحها، من أجل براءة يامن، من أجل طهارة أمي. أما أبي يكفيه عذاب الضمير الذي سيرافقه طوال حياته.. لقد فقدناه للأبد..

راحت تبكي وأحست بخطوات تقترب منها، إنها خطوات عمها.. وضع يده على كتفها وقال:

- الدكتورة تبكي، لا يا ابنتي.. أنت عندي بكل الدنيا، أنت مثل نعمت.

ثم حضنها وقادها من يدها وقال:

- أتنامون في المزرعة أم ننزل إلى حلب؟ الخيار لكم.

اتفق الجميع على النوم في المزرعة لم يترك العم ابنة أخيه في حزنها.. قطع الحزن بفكاهات حلوة أضحكت الجميع وسهر الجميع لساعة متأخرة من الليل .

زادت الأيام من صلابة لارا، كانت أكثر إحساسا من أخيها الذي كان يميل إلى التسامح مع أبيه، لم تكن تكره الحب، صحيح أن أذنيها لا تسمعان كلمات الحب، لكنها كانت تعرفها وتتحسسها بقلبها. وقد تمتعت بعقل كبير يشهد عليه الجميع.. فحازت على احترام الأسرة من عمات وأعمام.. كيف لا وهي على أبواب التخرج من الجامعة قال لها عمها:

- سأشتري لك عيادة جميلة في أي مكان تريدين.. سأعلق عليها يافطة كبيرة تحمل اسم الدكتورة لارا.

هزت رأسها بتغنج ودلال أمام عمها الذي عوضها عن حنان أبيها، وتورد خداها من السرور، لكن كانت تضع هدفا في نفسها البحث عن

أمها بأي وسيلة كانت ولكن بعد التخرج.
وصلت لارا إلى بيروت مع أخيها، لأول مرة ترى بيروت. سمعت كثيرا عن المدينة التي تعشق الجمال والحرية، فلا شيء ممنوع في بيروت، جالت في شوارعها تتمتع بجمالها وغرابتها.. استأجر الاثنان غرفة في فندق على شاطىء البحر.. وبدأا يسألان عن أمهما ويبحثان، كلفوا شخصا يبحث عن الاسم والعائلة ويأتيهم بالخبر، مقابل مبلغ مغر من المال، كان الشخص يعرف كل الأماكن في لبنان بحكم عمله في الفنادق بعد أيام جاءهم بالخبر اليقين.. المرأة تعيش مع زوجها في جنوب لبنان، وهي منطقة مشتعلة بالمقاومة ضد الوجود الإسرائيلي، تعهد الرجل بإيصالهم إلى البيت سالمين .
ركب الثلاثة سيارة خاصة انطلقت بهم نحو مدينة صغيرة في الجنوب كانت لارا تتطلع من نافذة السيارة إلى أشجار الأرز وترسم في مخيلتها صورة اللقاء.. أوصت أخاها أن لا يعرف بنفسه أولا ويتركان المجال لأمهما تتعرف عليهما.. احتشدت العواطف في صدريهما وشعرت لارا باضطراب دقات قلبها كلما اقتربت السيارة من البلدة .
وصلا الاثنان أمام الباب قبل غروب الشمس وجدا بيتا كبيرا صفت أمامه الكراسي وكانت هناك أضواء كثيرة المشهد ينبىء عن فرح في المنزل لم تعد لارا تعي شيئا، مسكت أخاها من يده ودخلت المنزل من غير استئذان.. فوجىء الجميع بالموقف قالت امرأة وقد نظرت إلى لارا:
- سبحان الخالق يخلق من الشبه أربعين إنها زينب. صورة عنها، وجم الاثنان وتوقفا ولم ينبسا بكلمة واحدة.. اندفعت امرأة جميلة من بين الحضور وقد طار صوابها.. وقفت أمامها ثم صرخت بصوت محزون:
- لارا
وانكبت على البنت تعانقها وهي تبكي بكاء الأطفال.. ثم اندفعت نحو ابنها تعانقه وتردد:

- أنت يامن
- أنا أكرم .

أبكى الموقف الجميع قصة أغرب من الخيال، أغلب الحاضرين لا يعرف أن زينب كانت متزوجة في سورية.. كان الموقف حزينا ومؤثرا يعجز القلم عن وصفه، تقف الكلمات حيرى في التعبير عن الموقف الإنساني.. هدأت لارا واستقرت نفسها المضطربة، بعد اشتعال قلبها لسنين عديدة من العمر، عاد إليها الاطمئنان لقد حقق الأخوان حلمهما برؤية أمهما، عادا إلى حلب ليمارسا حياتهما الجديدة .

أمنيات لم تتم.. الكويت الخميس ٢٠٠٥/٣/١٧

كانت القرية تنام تحت سفح هضبتين متجاورتين، وقد أطلق سكان القرية على الهضبتين أسماء عديدة، لعل أشهر اسم التصق بهما اسم (الثديين) أي النهدين. كان الجبلان الصغيران الأخوان المتجاوران أشبه بنهدي فتاة في مقتبل العمر.. حول منحدر الهضبتين، كانت المياه العذبة من النهر تجري حول سفحيهما وقد عشق النهر الهضبتين، يقترب منهما في الشتاء ويبتعد قليلا في الصيف، تتناثر حول التليّين الأشجار الكبيرة، ليزداد الجبلان جمالا رائعا أخاذا.. تسقط أشعة الشمس في الغروب من بين الشجيرات كخيوط من ذهب.. يحمل التلان كل ذكريات القرية، منذ الولادة حتى الممات، فوق ظهره يركب الأطفال يعبّرون عن فرحهم وهم يستقبلون الأيام المشمسة من فصل الربيع، من فوق سفحه يتطلعون إلى المستقبل عبر الغيوم المنحدرة المملوءة، ينظر إليه الكبار فيستعرضون تاريخ حياتهم حيث كان التلان يشهدان على سهراتهم وذكرياتهم .

في القرية النائمة تحت سفح التل، ولدت فاطمة من أسرة ريفية متوسطة الحال، كان الأب يملك قطعة أرض يزرعها في الصيف والشتاء تقتات منها الأسرة، حامدة الله على هذه النعمة. في تلك القرية الصغيرة، ترعرعت الفتاة، تحت ظلال حنان الأب الذي كان يخيم على جميع أفراد الأسرة. يرعى أولاده الخمسة، أكبر أولاده فاطمة التي عرفت برجاحة عقلها. امتازت الفتاة بجمالها اللافت للنظر، يقولون أنها تشبه أمها بالجمال. لعل أجمل ما فيها شعرها الطويل المنسدل على الكتفين، وعيناها العسليتان المتقدتان اللتان تنمان عن ذكاء الطفلة ابنة الثلاثة عشر ربيعا، كانت طفلة مميزة عن كل بنات القرية.. أعين الشباب تلاحقها كلما مرت مع أمها أو والدها من الحقل، لكن حامد كان الأكثر اندهاشا لجمال الفتاة، وقد صمم أن لا يتركها لغيره مهما كانت الأسباب.

رمقت فاطمة الشاب بنظرات خجولة، أدركت أن قريبها حامد يلاحقها

بنظراته الحادة في كل مكان فترتبك أحيانا، لكنها كانت تحس أن تلك النظرات تترك أثرا حسنا في نفسها، تبعث فيها إحساسا بالدفء في ليالي الشتاء القارسة. فتندلف إلى الغرفة منشغلة بأي شيء. ثم تدس نفسها في الفراش الدافيء وقد تغطت بعدة أغطية اتقاء للبرد والاستسلام للأحلام الوردية. كانت الأحلام تتلاحق والأمنيات تتزاحم، راحت تقلب رأسها على الوسادة ولكن الأمنيات الوردية تلاحقها، تصورت نفسها تمسك بيد حامد، وهي تلبس ثوب الزفاف ويحيطها بكلتا يديه. لكن ما ينغص الحلم الوردي مرض أمها التي تتأوه طوال الليل. بالرغم من مرضها تتحامل على نفسها لتطعم البقرات، تساعد زوجها في الأرض، ثم تقوم بعمل البيت وخدمة الأولاد ثم تنطرح في الليل أرضا من شدة التعب والمرض.
كانت فاطمة تستيقظ مبكرا حيث تعد الإفطار، تهيء أخوتها للمدرسة وتقوم ببعض أعمال البيت، ثم تحمل كتبها وتذهب إلى المدرسة التي كانت تجمع الطلاب والطالبات معا في صفوف مشتركة أحيانا، رغم كل مسؤولياتها فقد كانت تحرز درجة التفوق، تستحوذ على اهتمام ومحبة المدرسين والمدرسات.
لكن فاطمة اضطرت لترك المدرسة بعد المرحلة الابتدائية. لقد ثقل مرض أمها واشتد الألم عليها، لم تعد قادرة على العمل. أخذت فاطمة مكان أمها في العمل في سن مبكرة. أصبحت أما لأخوتها وممرضة لوالدتها، كانت تعمل طوال النهار وجزءا من الليل والابتسامة لا تفارق شفتيها، الجميع يريد راحة فاطمة حتى والدها الذي كان يؤثر أن يقوم ببعض الأعمال للتخفيف عن ابنته.. لا زالت تذكر فاطمة كلام الود بين والدها وأمها حتى بعد اشتداد المرض على والدتها.. تشعر فاطمة بدفء يسري في كيانها، كم تتمنى زوجا حنونا يكون من نصيبها! يشبه والدها في حنانه. كانت الأيام تجري ببطء على فاطمة..
نظر حامد إلى فاطمة نظرة إعجاب، أطال النظر فيها. خجلت فاطمة من

نظراته وابتسمت أحست الأم المريضة بتقارب القلبين، التفتت إلى حامد وقالت بصوت متهدج بعد أن خرجت فاطمة:

- أوصيك يا حامد بفاطمة كن لها أبا وأما، فاطمة ملاك وأنا أحملك أمانة غالية بأن تكون خير زوج لها إذا ما تم النصيب.

ابتسم حامد وشعر بسرور عظيم وقال:

- ستشفين إن شاء الله وتحضرين عرسنا.

نظرت الأم إلى حامد وتملته مليا، فقد كان شابا وسيما مملحا بالسمار، تزين ابتسامته الهادئة شاربان كأنهما رسما بقلم فنان مبدع، يضع على رأسه عمامة بيضاء وقد حرص على نظافتها. وعينان عسليتان تخترقان آفاق المستقبل، متوسط الطول، يمشي بثقة كبيرة كأنك تعد خطواته.. قالت في نفسها إنه يصلح لفاطمة، وفاطمة تصلح له. ما شاء الله بارك الله فيهما

- آه ! لو يمد الله بعمري لأحضر عرسهما فقط.

كتمت دمعة من عينيها حتى لا يراها أحد ،فقد كانت حريصة أن تبدو شجاعة أمام أولادها وأمام الموت القادم .

انصرف حامد ويكاد لا يصدق نفسه. راح يكلم ذاته:

- ستكون فاطمة زوجتي. إنها أعظم أمنياتي.

نسمات الهواء الباردة، كانت تلفح وجهه ولكنه لم يحس بالنسمات الشمالية الباردة، كان منسابا مع حلمه الذي أصبح في متناول يديه .

كان يوما رائعا في حياة القرية لقد تمت خطوبة حامد على ابنة عمه فاطمة وسيعقد قران فاطمة على حامد هذا اليوم، عرف القاصي والداني أن فاطمة ستكون من نصيب حامد. لقد حسد معظم الشباب الفتى على فاطمة. ارتدت أم فاطمة الثياب الجديدة وراحت تستقبل المهنئين وتقدم الحلوى والشاي، شعرت بنشاط غريب يدب في جسدها، تناست مرضها وآلامها. زغردت بصوت متهدج وهي تسمع الرجال وهم يقرؤون

الفاتحة إيذانا بعقد قران فاطمة. أما فاطمة فقد غمرت السعادة قلبها وتصورت أنها فازت بفارس أحلامها.
ها هو حامد قريب منها، إنه ابن عمها، شعرت بخفقان في قلبها من الفرح وتكاد تسمع دقاته كضربات الطبل.. لكن أعصابها مشدودة، يبدو عليها التوتر فقد شعرت أن جميع العيون تلاحقها، وقد ارتدت فستانا أبيض، فبدت كحمامة بيضاء، لفت رأسها بخمار أبيض من لون ثوب العرس بدت صورتها كملاك أو قل كحورية من حواري الجنة، قامتها الممشوقة ووجنتاها قد توردتا من الخجل. تريدان أن تصبا الدم.ملامحها التي راحت تشع على الجميع ، دفعت جدتها لتصيح بالحضور:(صلوا على النبي، صلوا على النبي) ثم زغردت للجمال الطبيعي. وراحت تقرأ بعض الآيات و التعويذات، خوفا عليها من عين الحاسدين .أحاط الأخوة الصغار أختهم وجلسوا إلى جانبها وقد تمسكوا بثيابها، شعرت بالتصاقهم بها فأدركت قربها منهم. أرادت أن تجهش بالبكاء لكنها سجنت دموعها واصطنعت ابتسامة عريضة، عندما رأت أمها تخرج من الغرفة الكبيرة، والدموع تسبقها. أمسكت بيد أختها وضمتها إلى صدرها بقوة ،كما تضم الأم رضيعها. ثم أغمضت عينيها لتواري دمعاتها.. قالت لنفسها:

- يا إلهي جميع الفتيات يفرحن بالخطوبة، لكني أشعر بشيء ثقيل يعتلي صدري..

قامت من مكانها بعد أن خف الحضور، سارت بثبات وصلابة نحو غرفة أمها، فاصطدمت عيناها بعيني والدها، تلقاها القلب الدافيء وضمها إلى صدره الحنون،قبلها ودخلا سوية الغرفة فارتمت فوق أمها تبكي وتنتحب اشتد مرض الأم وراحت تغيب عن وعيها أحيانا، كانت فاطمة تتمنى شفاء والدتها وأن تنهض قوية، عجزت الداية عن إيجاد الدواء، أسند الجميع أمرهم لله لم تمض شهور عديدة، حتى توفيت الوالدة وسلمت روحها إلى بارئها. خيم الحزن على العائلة المسكينة، بعد أن فقدت الصدر

الحنون، والجبل الأشم الذي يسندهم .
صارت فاطمة أما للأولاد الذين التفوا حول فاطمة لا يفارقونها. وكتصرف الكبار امتلأ صدر الأخت الرؤوم حنانا ورأفة، كانت كالنبع الذي لا ينضب. سدت مكان والدتها تخدم أخوتها وأباها وبعض الأعمال في الحقل. نسيت أمر زواجها، ماتت أحلامها.. راحت تبني حلما جديدا في بناء أخوتها ولملمة أسرتها.. لم ييأس حامد، فقد قدر عظمة المسؤولية، وقال لها:

- يا فاطمة، أدرك ما تحملين، وسأقف على جانبك وسأنتظرك مهما طال الزمن.. سيبقى هذا الرابط بيني وبينك ما أحياني الله لقد خلقت لك، وخلقت لي .

ابتسمت له، وشع من وجهها نور ملائكي زاد من شغف حامد وولهه وببراءة كبراءة الأطفال قالت:

- لكنك ترى وضعي يا حامد، ولا يمكنك أن تنتظر سنوات، لا أريد أن يسرق الزمن عمرك، تـزوج وانظر لحـياتك. سأضحي من أجل أخوتي حتى يكبروا ويتحملوا مسؤولية أنفسهم.

انصرف حامد حزينا كئيبا، لكنه صمم أن ينتظر فاطمة حتى ولو مضى العمر كله، لقد أحبها حبا عظيما، شغف بها فوق حدود التصور لقد كبرت في عينيه، عظمت في قلبه. تلاشت أحلامه مثل تلاشي ضوء الشمس عند الغروب، لكن أملا يحذوه بإشـراق جديد، وشمس تبزغ مع إطلالة الفجر مشى في الحقل مبحرا بعيني فاطمة الهادئتين النقيتين، محتضنا قلبا أبيض كبياض القلوب الطاهرة. جلس تحت ظل شجرة التوت الكبيرة العملاقة كما يسميها أهل القرية نظر إلى أرضها فوجدها عطشى جفت تربتها، لكنها بقيت خضراء تعطي وتتحدى الزمن ابتسم في سره، وأدرك أن ثمة شعورا خفيا مشتركا بينه وبن جدته الشجرة، وربما للشجرة أحاسيس أخرى مع كل أهل القرية. تابع سيره ثم اتجه نحو

الجبلين الصغيري. نظر إلى الجبلين العاشقين، هذا ما فسره بنفسه أحدهما فاطمة والثاني حامد، لابد أن يكون أكبرهما الذكر والثاني الأنثى نظر إلى القمة بتأمل وقال:

- إذا صعدت إلى القمة امتلكتها وسأصعد القمة نحو فاطمة مهما كلفني الثمن.
- لم لا تتزوج يا أبي؟ خذ زوجة تخدمك وترعاك، وهذا حقك .

أثارت فاطمة مشاعر الأب الكامنة، انحدرت أحاسيسه كالسيل العارم، وانتفض غاضبا مزمجرا:

- لا يا فاطمة، لا، يجب أن تتزوجي أنت. حدثي نفسك قبل أن تنصحيني. مضت خمس سنوات على موت أمك وهذا يكفي لقد قمت بواجبك، تعدى عمرك العشرين عاما، وابن عمك ينتظرك، لم يبق إلا الزفاف.. إن كنت تصبرين فما ذنب حامد؟ أما أنا فلن أتزوج بعد أمك امرأة أبدا. هذا ما قررته منذ زواجي بأمك لقد عاشت معي حبيبة وستبقى في ذاكرتي حبيبة. أنتم أغلى ما أملك يا فاطمة، لن أستبدل حبكم بحب آخر، لن يأخذني منكم إلا الله. ثم اسمعي يجب أن تتزوجي هذا العام في عطلة المدارس. في الصيف إن شاء الله. سأتدبر أمور الأولاد. أريد أن أراك عروسا جميلة تزفين إلى ابن عمك.. إني أرى الألم في عينيّ حامد. بارك الله فيكما، وأنعم عليكما بالسعادة. لن تكوني بعيدة عني. ستكونين في نفس القرية وعندما نحتاجك نجدك قريبة منا.

انفجرت الدموع من عيني فاطمة، أرادت التكلم ولكن أباها منعها من الكلام وقد تغير لونه، وضاق نفسه، فقد شعر بنار تأكل صدره، تحامل على نفسه مستندا على كتف فاطمة ودخل الغرفة ليستريح على فراشه غطت والدها وقبلت جبينه وتركته يأخذ غفوة من النوم ليستريح .

خرجت من الغرفة وقد اختزلت كل أحلامها بحلم واحد. ستقبل كل

شروط والدها وستتزوج من حامد، ستلبس ثوب العرس حسب رغبة أبيها، لكن حلما واحدا هو الأهم. أن يحفظ الله والدها وأن يبقى على رأس أولاده يرعاهم ويهتم بهم. تصبب العرق من جبينها بغزارة مسحت عرقها برداء ثوبها، ثم أخذت نفسا عميقا واتجهت إلى الغرفة لتطمئن على والدها .

غمر الفرح قلب حامد وهو يستمع لكلمات عمه:

- اسمع يا حامد، سأبارك لكما بالزواج في مطلع الصيف، بعد عطلة المدارس، لا أريد أن تنتظرا إلى ما لانهاية، صحتي جيدة بعد أيام تعود إليّ صحتي، لقد رماني البرد هذه المرة. لم ألبس لباسا كثيرا أوهمتني الشمس أن البرد قد ولى، سأجهز فاطمة بكل ما تحتاج. سوف تذهب مع عمتها إلى حلب لتشتري كل ما يلزمها من حاجات العروس، وتجهز لها ثياب الفرح.

كانت الدنيا لا تتسع لفرح العروسين، أرادا أن يضما بعضيهما، لكنهما خجلا من الأب الحنون. خرج حامد من البيت وعينه على فاطمة، راح يحلم بالعروس وينتظر الصيف على نار أحر من الجمر.

نزلت فاطمة إلى حلب مع عمتها لتجهز نفسها، أدهشتها المدينة الجميلة الكبيرة قالت متعجبة يا إلهي كل هؤلاء البشر في حلب. خيّل إليها أنه لا يوجد مدينة أكبر من حلب الشهباء. لأول مرة تطأ قدماها أرض حلب.. تسمع عن حلب لكنها لم تتخيل أنها بهذا الجمال، وكثرة البشر في شوارعها كالنمل المنتشر. كانت عمتها تقودها من يدها خوفا عليها من السيارات. قالت لها عمتها:

- هذه ساحة باب الفرج. كل غريب يمر هذه الساحة. هنا وسط المدينة.

تذكرت المثل الذي يذكره أبوها دائما:(ما يعرف حلب إلا من باب الفرج) جابت أسواق المدينة والشوارع التجارية واشترت كل حاجاتها وفي المساء عاد الجميع إلى قريتهم الصغيرة الهادئة الوادعة .

عطّل الطلاب من مدارسهم، وجاء أخوتها من المدارس يحملون شهادات نجاحهم، زغردت لهم ونثرت فوقهم الحلوى، وقد تجمع الصبية حولها، نظرت إليهم وأحاطتهم بذراعيها، أحزنها منظرهم، وتذكرت أنها ستفارقهم بعد أيام، ستغادرهم مرغمة ولو أن الأمر بيدها ما تركتهم كانت آمنة أكبر أخوتها وهي في الخامسة عشرة من عمرها في المرحلة المتوسطة من الدراسة، نظرت إليها بإشفاق ورتبت على كتفها وقالت:

- ستتحملين المسؤولية بعدي انتبهي لأخوتك وقومي بخدمتهم.

(هزت البنت ببراءة رأسها،ولكنها لم تفهم من الأمر شيئا)

كانت الشمس تصفع بأشعتها وجه الأرض، وقد أعدت فاطمة الفطور والشاي لوالدها. وسألت أختها:

- ألم يستيقظ أبي بعد؟، ما الأمر؟.. ليس من عادته النوم بعد طلوع الشمس

دخلت غرفته أيقظته، لكنه لم يستيقظ. حاولت تحريكه لكنه كان جثة هامدة. غادر الحياة بصمت كما عاشها بصمت، تكررت مأساة أمها مرة ثانية، لكن موت أبيها فاجأها، أخرست المصيبة قلبها.. احتسبت أمرها إلى الله.. تبخر الحلم وأصبح سرابا من الصعب اللحاق به، أدرك الاثنان أن الوقت لم يعد ملائما للزواج، اعتذرت فاطمة لحامد وطلبت منه أن ينسى أمرها، وليتزوج من بنات القرية ، أمامها سنوات طويلة ولن تترك أخوتها على هذه الحال. لقد أضحت أما وأبا لهم. اختارها الله لتربيتهم ، لمن تتركهم؟ ستعيش من أجلهم وستنذر نفسها لهم.

كان القرار صعبا على حامد، وهو يدرك الأسباب وقد منحها العذر فلن يكون أنانيا، سينسى حلمه، لكنه لن يترك فاطمة ستبقى على اسمه مهما امتد به العمر ولن يتزوج من غيرها.

اقتربت منه على استحياء، نظرت إليه ثم أطرقت رأسها إلى الأرض، نظراتها كانت كتابا قرأ كل حروفه على عجل، استشف من عيونها كلاما

أبلغ من كلام الشعراء وأعظم من حكم الحكماء، أدرك ما في نفسها، عرف أنها لا تستطيع الكلام، اقتربت منه أكثر، ثم ناولته منديلا كان بيدها وقالت له:

- خذه ذكرى، واعلم أنه مهما دارت الأيام فلن أتزوج رجلا بعدك ولو تزوجت عشر نساء. لقد سُميتُ على اسمك وسأبقى على اسمك لآخر لحظة من عمري .

لم يعد قادرا على تحمل الكلام اللاذع من أهله وأصدقائه، اتهموه بالجنون ساعة، وبالخيال ساعة، وأنه مسحور تارة أخرى، آثر بعدها أن يغادر القرية التي أحبها لينتقل إلى السعودية حيث وجد عملا هناك، في غمرة العمل نسي حامد همومه وأحزانه، بقي هناك خمسة عشر عاما منهمكا في العمل وقد كون ثروة لا بأس بها. جعل قلبه كورقة بيضاء، غرق في عمله كصوفي في محرابه.. بعد هذه السنين الطويلة شعر بصوت يناديه، ما زال الصوت يتكرر كل يوم.. إنه حلم قديم بدأ يصحو بعد غفوة طويلة أحس بقلبه ينشطر إلى قسمين، قسم يدعوه للعودة فقد حن إلى الجبل والنهر، إلى الأهل.. إلى فاطمة. الشطر الآخر يدعوه للبقاء، ما فائدة العودة الآن؟ سرقت السنوات عمره. تناول المرآة لينظر إلى نفسه، التجاعيد بدت ظاهرة على وجهه والشيب غزا معظم الرأس.. عصر الألم نفسه ورفرفت روحه تطالبه بالعودة. الحلم القديم يقرع كل حواسه. وقفت سيارة أجرة تحمل بعض الأمتعة أمام الدار في القرية، نزل منها رجل يبدو في الخمسين من عمره، اشرأبت الأعناق للرجل القادم لحظات صاح الجميع هذا حامد. سرى النبأ في كل القرية. كانت فاطمة تركض لا ترى أمامها وقفت أمام الباب تنظر إلى حامد لم تستطع قدماها أن تكملا بقية الخطوات، كبت على عتبة البيت، ركض إليها حامد وحملها بذراعيه وأدخلها البيت .

في اليوم التالي أقيم عرس كبير حضره كل أهل القرية صغارهم

وكبارهم بنيت الخيام الكبيرة، ونحرت الذبائح. العرس عرس الجميع. سيدخل هذا اليوم تاريخ القرية التي أصبحت مدينة صغيرة. الفرح يبدو على الجبلين الأخوين الحبيبين بقيا في مكانهما ثابتين، تكسوهما خضرة الربيع وقلوب المحبين.. راحت تعرف زوجها على أفراد أسرتها في السنوات الماضية، هذه أختي آمنة مدرسة تدرس في مدرسة القرية، متزوجة ولها خمسة أبناء. هذا أخي مؤتمن تخرج طبيبا وتخصص في الجراحة. افتتح عيادة في المدينة. هذا أخي عادل مهندس زراعي، يعمل في أرض أبيه أدخل مزروعات وتجارب جديدة في القرية. يساعد أهل القرية ويعلمهم تطوير الزراعة. كانت تتكلم بفخر وتقدم اعتذارها بأسلوب آخر.

مرت السنوات سعيدة على الزوجين السعيدين رزقا بطفل وحيد لقد ملأ بيتهما سعادة وهناء. لم تنجب بعدها فاطمة ولكنها ستكافح من أجل ابنها (ماجد).. قال حامد:

- قد تموت الآمال لكنها تولد من جديد، إنها أشبه بالإنسان يموت ويخلفه ابنه من بعده. سيكون ماجد أملنا في حياة جديدة .

أبحث عن ولدي.. الكويت السبت ٢٠٠٤/١٢/١٨

تجلت ابتسامة عريضة على فم حامد وهو يسمع كلام أبيه يوعده أنه سيخطب له ابنة عمه انشراح. لم يخف على الأب رغبة ابنه في الزواج من ابنة عمه انشراح.. كان يدرك ذلك منذ زمن قديم. إنها حقيقة لا تقبل الشك أو الريب، لكنه كان ينتظر الوقت الملائم للفرح بالعروسين .

ارتدت انشراح ثوب العرس فبدت كملكة على عرشها، تزينها الأقراط الذهبية وقد لامست الظفائر العسجدية، لتأخذ الصورة لب العريس الفتى.

قال أبو حامد:

- لم يقع بصري على أجمل من هذه الصورة.

حدق الجميع بالملكة الجميلة وقد احتضنتها أم حامد وأخواته وأحاطوا بها إحاطة السوار بالمعصم. وضع حامد يده بيد عروسته وقد زاحمها بمنكبه، وهو يقودها من بيت أهله إلى بيته، كان العروسان كطيرين جميلين أدخلا في القفص الجميل. لم يكن حب حامد لزوجته بحاجة إلى اعتراف صريح، تستطيع أن تدرك محبة الزوجين لبعضيهما من خلال مظهرهما، وتلاصقهما، وتصرفهما، إنه حب قد رُسِم على الدرب الطويل للزوجين العاشقين.

عُرفتْ انشراح بأخلاقها الطيبة فاستحوذت على حب الجميع، فقد كانت اجتماعية حريصة على الوصول إلى قلوب الأقارب والعائلة. بيتها ملتقى الأحباب ومجمع الأخوان والأخوات. رزق الزوجان بخمس وردات جميلات، كن يملأن البيت بالغبطة والسرور، وقد سيطر حبهن على قلب الوالدين، يكبرن ويكبر الأمل معهن. مدت يديها إلى الشمس لتأخذ من أشعتها بهاء وجمالا، لبست فستانها الجميل حسب رأي زوجها، وقفت أمام المرآة تسرح ظفائر شعرها، لم يعجبها شكلها، أحست باصفرار، ووهن في جسمها، تلمست بطنها وقالت في نفسها ربما أكون حاملا. لكن كيف ؟ أنا أتناول الحبوب كل يوم. ولِمَ الحمل؟ لمزيد من

البنات، إنهن جميلات وعزيزات عليّ، لكن طالما حلمت بغلام يفرح أبا هادي . سقطت دمعات سخية على الوجنتين الورديتين، مسحت دمعاتها بيديها ورمت ثوبها الجميل، تعكر خاطرها، أطلت من الشرفة وراحت تطالع النجوم تنتظر عودة زوجها، أصبح أبو هادي يتأخر بالديوانية لم تكن هذه عادته، إنها تشعر بحزنه، لم يعد الرجل المرح كما عهدته في حياتها. تستطيع أن تفسر صمت زوجها، هي ليست غبية، طالما عرفت بذكائها الوقاد، تعرف كيف تخرج الجواب المستعصي من جوف القنينة لكن ما يزيد من حزنها انه لم يشك لها يوما همه، لم يبدِ امتعاضه من شيء، كان يستقبل ولادتها بفرح وسرور ويقول لها:

- الحمد لله على العطاء، والحمد لله على سلامتك .

لعل الزوجة أقربُ قلبا للرجل تعرف كنهه وسره وإن لم يبح به.. ترى في عينيه الشوق لغلام يقوده معه ويأخذه إلى كل مكان، لم تكن هي أقل شوقا منه. طالما حلمت بولد يكون سندا لها في معترك حياتها ولأيامها، وسندا لأخواته في الليالي السوداء. هذه المرة لن تقول له أنها حامل، إنها خجلة من نفسها، لكن هل الأمر بيدها؟ إنه بيد الله. أطلت من شرفة البيت و دعت ربها بخفوت:

- يارب، أسألك بعظمتك أن ترزقني طفلا جميلا لأسميه على اسم جده هادي .

دخلت غرفتها وألقت بنفسها على الفراش ونامت، شعرت أنها لا تستطيع أن تقاوم النوم كان بودها أن تبقى ساهرة حتى عودة زوجها حامد من الديوانية.. فتح حامد الباب بهدوء، وجد زوجته نائمة على غير عادتها نظر إليها بحنان، لم يشأ أن يوقظها، خرج إلى الصالة وجلس على الكرسي أخذ دلة القهوة وسكب لنفسه فنجانا، الكل يغط في نوم عميق. شعر بتأنيب الضمير، لم ير بناته مساء اليوم. تعودّن أن لا ينمن حتى يرينه. فتش في مغاصات حياته، وجد ألما يكاد يعصر قلبه. آه كم حلمت

بك يا هادي!!. كم أنا بحاجة إليك!. غط في نوم عميق في مكان جلوسه. استيقظت انشراح بعد منصف الليل، لم تجد زوجها في الفراش نهضت قلقة وخرجت إلى الصالة لتجد حامد نائما على الأريكة، أيقظته برفق، وشعرت بالحزن عليه عرفت أنه يعاني من أزمة في نفسه. وأن ثمة شيء يؤرقه.. قالت له:

- يا أبا هادي! لما لا تتزوج؟ لعل الله يرزقنا بغلام يكون أخا لبناتنا..

ضمها إلى جناحه ومسح الدموع من عينيها وقال:

- لقد وهبتك قلبي، فكيف أعطي ما لا أملك لغيرك؟ أنت أجمل امرأة رأيتها ولن أجد امرأة مثلك. لا لن أتزوج غيرك وما أعطيته لا أمن به ولا أسترده. ليس من عادتي رد ما أعطيت. سأبقى الغيمة التي تغطيكم جميعا وتفيض بالخير .

ازداد حزنها كانت الكلمات كعطر الأريج يفوح في كل مكان وقالت في نفسها وهي تنظر إليه:

- سأمنحك طفلا جميلا هذه المرة ولن يخيب ظني بالله لأنه خير الواهبين .

كانت تتلمس بطنها كل يوم وتدعو ربها أن يجعل المولود غلاما ، صبيا جميلا مثل أبيه. راحت تترقب المولد بفارغ الصبر، كأن إلهاما سماويا أوحى إليها أن المولد الجديد سيكون غلاما، لم تعلم زوجها كتمت الأمر عليه ولكن بطنها فضحتها! وتساءل زوجها مندهشا:

- أحامل يا انشراح؟!

سكتت، وأعياها الجواب، تلمس الزوج الحنون بطنها وطبع قبلة على خدها ودعا لها بالتمام والخير والسلامة ولم يزد بعدها بشيء. لكنه راح يحلم بغلام جميل يملأ عليه البيت. كان أمله بالله كبيرا. راحت الأيام تطوي صفحاتها وانشراح تعد سطورها يوما بعد يوم، ها هي أيام الولادة تقترب، وعيونها ترسم الحيرات، الجميع يترقب ولادة انشراح وخاصة

الوردات الخمس في البيت. لم يسمحن لأمهن بالحركة فقد حافظن على راحتها.. السماء تتلبد بالغيوم السوداء تنذر بالخطر، الرجال يجتمعون في الديوانيات ويتابعون الأحداث السياسية المتسارعة، لم تدرك انشراح سرها وهي تسمع الجدال الدائر بين زوجها وأبيها. كان زوجها محتدا وهو يقول:

- ماذا يريد ؟ إنه يطمع ببلادنا. أعطيناه كل ما عندنا، يريد بترولنا ثمن حربه مع إيران. من قال له يحارب إيران؟.

قال والدها:

- سننتظر اجتماع جدة اليوم. ما الذي يسفرعنه؟ لعلهم يجدون حلا.

شعرت بالخوف والرجال يتحدثون عن حشود عراقية كبيرة على الحدود الكويتية.. الأمر جدي هذه المرة. رأت القلق باديا على وجوه الرجال. شعرت بآلام تنتابها وبخبرتها أدركت أن موعد الولادة قد حان وأنها في المخاض صبرت على آلامها، لاحظ حامد توتر زوجته وتغير لونها عرف أنها في مخاض الولادة حمل زوجته عند المساء إلى مشفى الجهراء للولادة، إنه الوقت الأسوأ في هذه الظروف الصعبة. وقف زوجها ينتظر ولادة زوجته بقلق بالغ. كان قلقا على وطنه وقلقا على زوجته. ساعات عصيبة من المخاض مرت على الزوجة والزوج .

أخيرا ولدت انشراح غلاما جميلا، لكن بعد عملية ولادة جراحية اضطر فيها الأطباء لعمل جراحة قيصرية للمرأة. إنه صبي عمت الفرحة جميع وجوه الحاضرين تبادل الجميع التهاني كانت دموع الفرح تغطي وجنتي حامد لقد انتظر طويلا هذه البشرى.. لكن أين الغلام؟ إنه في الحاضنة يحتاج للرعاية بضعة أيام. قطعت الأحداث المتوترة فرح الأهل والأقارب، تتالت الأحداث مسرعة كان وقعها هائلا استيقظ الجميع في صبيحة اليوم المشؤوم على دوي القنابل والمدافع، جنود عراقيون يدخلون البلد ويعلنون أنهم الأسياد عليه، اختلط الحابل بالنابل، الخبر فاجأ كل التوقعات. الناس حيرى أمام المصيبة التي حلت بالبلد، انتشرت

الأخبار انتشار النار بالهشيم، مما دفع البعض إلى الخروج من البلاد والتوجه نحو الدول المجاورة. انتاب القلق حامد حول زوجته وولده، لا يستطيع إخراج زوجته وولده من المستشفى فلا زال الاثنان محتاجين للعناية والاهتمام. أغلب الأطباء تركوا المشفى وراحوا يعودون لبلادهم، لكن هناك بعض الأطباء لا زال يمارس مهنته الإنسانية، لكن بعد أيام حدث ما لم يكن بالحسبان، فقد أخرج الجنود المرضى من المشفى بحجة أنها مشفى عسكري، خرجت انشراح بعد منتصف الليل لتأخذ ابنها من الحاضنة لكن لم تجده خلع قلبها وطار صوابها وراحت تولول، قالت لها امرأة هناك: أن امرأة حملت بعض الأطفال معها لتنقذهم من الإهمال مشفقة عليهم بعد أن تركهم الأطباء والممرضات، كادت الأم تصاب بالجنون، حضر الأب وطاف معها أرجاء المشفى لكن لا أثر ولا دليل.. لقد فر الأبوان من قدر إلى قدر. راح الأب الواله يفتش من مكان لآخر وسط المخاطر وزخات الرصاص والدبابات التي راحت تملأ الطرق والمناطق ضاعت كل المحاولات في مهب الريح. لم يكن هناك ثمة أمل للأبوين اللذين استسلما لقدرهما، راضيين بحكم ربهما. كان البحث أشبه بمن يفتش عن إبرة في كوم من القش. قلَّبَ حامد يديه متأسفا على هذه الحالة فقد ضاع الوطن وضاع الولد.

حطت العائلة رحالها في مدينة الدوادمي في المملكة العربية السعودية، راح الأب يسأل كل النازحين والمتضررين، بحث عن ولده في الرياض والخرج وفي رفحا وعرعر، والدمام والإحساء جاب المناطق شرقا وغربا ولا يزال الأبوان يبحثان عن ابنهما حتى اليوم.. لم يقطعا الأمل بالله سيأتي هادي في يوم ما.. عاد الوطن محررا، وسيأتي هادي يسأل عن أمه وأبيه ووطنه.. قالت انشراح:

- اتركوا الأبواب مفتوحة، والنوافذ مشرعة سيأتي هادي ليروي الشجرة الظمأى، ليمدها بالحياة .

حلم لم يتحقق

ملأ الفرح قلبها وشعرت بسعادة لا توصف، لقد نجحت في مسابقة التقديم لوظيفة مرموقة في الشركة الحكومية للبتروكيماويات، تباهت بشهادتها الجامعية وتفوقها في الدراسة، دخلت البيت مسرعة تلهف من الفرح وتوجهت نحو أبيها، نظرت إليه نظرة عميقة، كان كث الشاربين، ذو عينين براقتين، التف بعباءة جميلة، أسود الشعر يصبغ شعره كل أسبوع لا يحب البياض من شعره، تبدو عليه الصرامة والحزم والقسوة نادته بصوت متوتر:

- أبي أبي بارك لي نجحت في المسابقة، سوف أستلم عملي غدا بإذن الله .

رد الأب على ابنته بفتور مباركا وبابتسامة مصطنعة.

- اسمعي يا ابنتي عندي خبر مفرح لك، مالك وللوظيفة؟، نحن لا نحتاج لوظيفة والحمد لله، مركزنا المالي والاجتماعي يكفينا، خطبك أمس ابن صديقي ياسر التاجر المعروف وقد وافقت على طلبه وحددنا موعد الزواج الشهر القادم. أعطيت كلمة لأبيه ولن أتراجع في كلمتي يا بنيتي لا أريد أن أسمع كلمة رفض منك

شعرت بصدمة قوية، أحست بدوار كبير يجتاح رأسها لم تتكلم خرجت من غرفة أبيها كعصفور جريح، دخلت غرفتها وأجهشت ببكاء حار، شعرت بانهيار عصبي يجذبها إلى الأرض ألقت نفسها على السرير كجسد ميت، رفعت رأسها لتجد أمها جانبها والدموع تنحدر من عينيها لقد سمعت حوار زوجها مع ابنتها، لم تستطع الأم أن تتكلم، إنها تعرف طبع زوجها الذي لا يتراجع في أمر يقوله يعتز برجولته وقوته في بيته. تكسرت الدموع في عينيها ضاع حلمها، كانت تريد أن تشعر بوجودها ككائن حي يعمل ويجد وتختار زوجها بإرادتها. رمت بنفسها في حضن أمها وراحت تبكي كطفلة، مدت الأم يدين مرتجفتين لتمسح الدموع من الخدود الوردية وبكت مثل بكاء ابنتها، الجرح واحد، والقهر واحد، والزمن واحد.

امرأة من الوهم "ومضة"

عندما رأها فتن بجمالها، وهام بها ظن أنها زوجة حياته قادها الحظ له، لابد أن يوافق أهلها عليه، ولا سيما أن أخاها صديقه. ماحز في نفسه أنها لم تعيره أي اهتمام، وكأنها لم تراه. حسنا المرأة لا تبدي إعجابها إلا بعد الزواج. تقدم لخطبتها سريعا ولم ترفض الزواج ولم توافق بقيت ساكتة، وعلامة القبول السكوت ربما الخجل منعها كما فسر أهلها ذلك تم حفل الزواج، وأحاط أكرم زوجته بكل عناية وحنان، أراد أن يثبت حبه لها، لكنها كانت كالفرس الجامح أبت أن تتروض لفارسها، كانت تخالفه بكل شيء نظراتها الوقحة تجاهه واتجاه أهله أشعرته بالخجل من تصرفاتها. كان يأمل أن تثبت وتعقل بعد ولادتها والمرأة الفطنة هي التي تعقل بعد الولادة، فرح الجميع بولادة بشر الولد الأول إلا هي لم تبد أي علامة من علامات السرور، أراد أن يعطيها فرصة فلا بد أن تتروض وجموحها لن يطول حسب رأيه، لكنها ازدادت جموحا وعنفوانا، وتطلب الطلاق، أصبحت كالشوكة في حلقه لم يعد يجدي معها أي دواء. اضطر لطلاقها وهو متحسر للحياة التي أمضاها معها، اعطاها أكثر مما تستحق، لكن لا بأس لقد كسب منها هذا الولد الجميل، مضت سنوات عديدة تزوج بعدها أكرم وأنجب أولادا من زوجته الثانية وازداد تعلقه ببشر، حتى أن أمه لم تطلب رؤيته مرة فقد تزوجت عشيقا قديما لها ونسيت ابنها لقد تاهت في غرامها، في ليلة باردة من أيام الشتاء دخلت امرأة كالشبح مكتب أكرم نظر إليها لم يعرفها في البداية دقق في الوجه الكئيب عرف أنها زوجته، جاءت تطلب السماح وأن يعيدها إلى ابنها هيهات أيتها المأفونة، لن أعطيك بشراً أبدا ولن تعودي لبيتي اذهبي إلى عشيقك عودي إلى أحلامك هذا ماجنته يداك فتحملي ذلك ودفعها لتخرج من الباب نزلت دمعات حارة على خديه وهو يودع ابنه بشرا الذي سافر إلى أمريكا للدراسة هناك أراد أن يبعده عن أمه ولا يبقى لها أملا في رؤيته.

الطلاق الصامت

كانت في ريعان شبابها عندما تقدم لها للزواج. وهو من أقارب أسرتها كان وسيما جذابا حلو الكلام. لا يفتأ أن يردف كلامه المعسول ببعض النكت اللطيفة، يبدو على وجهه المرح، ابتسامته لا تغارق وجنتيه، موظف في شركة خاصة يعمل محاسبا، وهو خريج كلية التجارة، فرحت كثيرا غادة به وقالت في نفسها إنه نصيب جيد والحمد لله، كانت آمالها كبيرة في بناء أسرة وحياة رغيدة.

أقيم فرح كبير في المدينة للعروسين، وقد استلمت غادة وظيفتها مدرسة لمادة اللغة الإنكليزية. كان الزوجان متعاونان في بيتهما وبناء أسرتهما. رزقت الأسرة بثلاثة أولاد وبنت، زادت مصاريف الأسرة والعبء كبير لابد من زيادة وارد الأسرة، خاصة أن راتب زوجها قليل وخصوماته كثيرة لكثرة غيابه وحبه للنوم، لايستيقظ لعمله، ويدب الخلاف بينهما أحيانا وهي تلح عليه أن ينهض ويتناول فطوره ليذهب إلى عمله جاءت الفرصة مواتية لغادة بقبولها في التدريس في دولة الكويت، حيث كتبت عقدا مع وزارة التربية في الكويت.

بعد سنة من التدريس استطاعت غادة أن تؤمن عقد عمل لزوجها في شركة كويتية، براتب لا بأس به.. اجتمع شمل الأسرة في الكويت وكانت حياتهما سعيدة، لولا زوجها الذي يتقاعس عن عمله أحيانا رغم الإنذارات التي توجه له، لم يترك عادته في حب النوم ومتابعة مباريات كرة القدم.

خرجت من عرفتها وقد ارتدت ثوبا شفافا وشعرها منسدل على كتفيها، جديلتان جميلتان توحي بأناقة صاحبتيها نادت ابنتها مها بصوت عذب مها، مها فوجئت بزوجها يجلس في الصالة يتابع المباراة وهو يضحك ويتمتم بكلمات لم تفهمها، رجعت لغرفتها مسرعة ووضعت الشال على راسها وارتدت عباءة على كتفها تخفي الثوب الشفاف وقالت في كلمات

مهموسةاستغفر الله، هل رآني، عشر سنوات وهما في بيت واحد لا يكلمان بعض، أشبه بالطلاق، لقد ملت منه ولم تعد تطيق زوجها الكسول. لقد اتفقا أن ينفصلا عن بعض ولكن من غير طلاق من أجل رعاية الأولاد، واتفقا أن يدفع هو نصف آجار البيت وهي النصف الثاني، لا تريد أن تجعل أولادها يعيشون من غير أب، تستطيع أن تتخلى عنه وتطرده من البيت، راتبها يكفي ويزيد، لكنها آثرت كتم أنفاسها من أجل أولادها، رجعت إلى غرفتها وقد انخدرت دمعات حارة على وجنتيها، مسحت دمعاتها ونامت على السرير تبكي بصمت، وقد غطت رأسها بالوسادة.. كم كانت تتمنى لو تقذف به من فوق بلكونة المنزل لعله يحس برجولته ومسؤولياته .

قطة من ذهب

كانت تتكلم بعصبية في الجوال، دخلت غرفتها مقطبة الجبين، رمت الجوال فوق السرير. كان السرير غير مرتب كأن معركة جرت فوقه، تتراكم فوقه ألبستها الداخلية والخارجية، لا تعرف إلهام الترتيب، هكذا حياتها فوضى في فوضى. فتحت خزانتها تريد أن تغير لباسها تلقي بالألبسة فوق السرير واختارت أخيرا بنطالا وبلوزة قصيرة ،شعرت بتوتر شديد لم يعجبها اللباس، لكنها لبسته على مضض تريد أن تغير لباسها، تتوتر إلهام لأتفه سبب عصبية مع أهلها، الكل يخشى أن يثير أعصابها، كانت إلهام شديدة البياض دلوعة في حركاتها من. الصغر، عينان زرقاوان يجملان محياها، نحيفة البدن، خصر جميل كخصر الغزال. ورثت الجمال من أمها الأجنبية، لا عيب فيها غير قصر في طولها، لم ترتح لطولها دائمة التذمر تلبس الأحذية العالية لترفع من قامتها. حركاتها اليهلوانية وضحكاتها تنم عن روح مرحة في داخلها رغم عصبيتها السريعة، حملت إلهام حقيبتها وخرجت مسرعة من البيت، ركبت سيارتها ونظرت في المرأة وراحت تعدل خصلات شعرها القصير المنسدل على كتفيها، حكت بيدها أنفها الصغير شعرت بتوتر بسيط كأن أنفها الدقيق لم يعجبها. مرت باصبعها على فمها الصغير الململم كأنه مرسوم بريشة فنان، رفعت المرأة وقالت لنفسها فعلا أنا جميلة، لا بل أنا ملكة ثم تحسرت وقالت أه من طولي. كانت إلهام تحلم بمستقبل جميل، يليق بها، سارت بسيارتها وهي تحلم بفارس المستقبل لا بد من مواصفات تختلف عن كل الموجودين. كانت ترفض معظم الشباب الذين تقدموا إليها من عائلتها، وقفت بسيارتها عند مقهى أنيق على شاطئ الخليج، طلبت فنجانا من القهوة، أشعلت سيجارة راحت تحرقها بسرعة رن تلقونها مرات عديدة ولم ترد على المكالمات، جاءتها رسالة من أمها أن أختك صفاء جاءت إلينا من الرياض. ركبت سيارتها وعادت مسرعة

إلى البيت، تلقتها أختها في الأحضان أبدت صفاء إعجابها بجمال إلهام وقالت لها:

- لقد زدت جمالا وروعة يا قطة

هزت إلهام كتفيها بتغنج ودلع، وقالت صفاء:

- ألم يأتكِ فارس المستقبل؟ اقبلي الزواج قبل أن يفوتك قطار العمر وسترضين بكهل في التسعين

ضحكت صفاء ضحكتها المميزة، رن جرس الباب واستأذن خالد في الدخول إنه ابن خالهما، ألقى خالد السلام وردت صفاء بترحاب كبير وابتسامة عريضة، قالت:

- أهلا بابن الخال العزيز، أين كنت لم نرك من زمن طويل؟
- كنت مسافرا إلى تركيا في زيارة عمل

ابتسم لصفاء وقالت صفاء:

- لم تتزوج بعد
- قال لم أجد العروسة، فتشي لي عن عروسة أقبل اختيارك

ضحك، ردت صفاء وقالت:

- العروسة جاهزة فقط اعتمد وأشارت بعينها له نحو إلهام.
- رد لها بالموافقة

كانت إلهام تشغل نفسها بالجوال وكأنها غير معنية بالأمر.. أشارت صفاء لإلهام بأن تتبعها إلى الداخل، في الداخل قالت صفاء بصوت خافت لإلهام..

- ما رأيك في الزواج من خالد؟

قالت إلهام:

- ومن قال لك أنه يريد الزواج مني؟ هل كلمك؟ ومن قال لك إني أريد الزواج؟

كانت الأسئلة متلاحقة من إلهام وقد زاد توترها، قالت صفاء:

- أنا متأكدة أن خالد يريدك
- كيف عرفت ذلك ؟
- بحدسي وذكائي.

عادت الوردتان حيث يجلس خالد، كانت إلهام مغرورة قليلا ما بحمالها وبياضها، ولا تخفي إعجابها بكثرة المعجبين بها، والخاطبين، كانت لا تعطيهم اهتماما ليتولعوا بها أكثر وتعاملهم بفوقية متغطرسة. تتجاهل الشباب الزائرين من أقاربها، وخاصة خالد، أدركت صفاء أن أختها موافقة ضمنا رغم عنادها، وقالت في نفسها:

- هذي أختي الصغيرة وعلي أن أنصحها وأكون معها وعنادها طبيعي لفتاة جميلة مثلها..

نظرت إلهام من طرف خفي إلى خالد ورأته وسيما، شخصية مرموقة طويل الجسم، يشوب وجهه سمار خفيف، تبدو عليه الرزانة والوقار، أنف دقيق ومبسم جميل وقالت في نفسها والله جميل ورجل وشخصية وصاحب عمل، لم أنا أرفضه؟، سرح خيالها بعيدا قالت في نفسها أريد رجلا يتعذب بالحب من أجلي، يخطبني مئة مرة حتى أرضى، يتوسل لي، يغمرني بحبه يتفانى من أجلي،. لا أريد زواجا بهذه السهولة، أريد أن أشعر بطعم الحب، ويقولون:

- إن الحب فقط قبل الزواج وبعد الزواج يصبح لا شيء ثم إن الزواج من الأقارب عقارب

اردفت في نفسها:

- استغفر الله من قطع الأرحام

ابتسمت وقالت في سرها:

- فعلا أنا مغرورة.

خرج خالد بعد أن استأذن وخرج وعيناه تلاحق إلهام بعد خروج خالد، أبدت إلهام موافقتها لرأي أختها، استسلمت لقدرها بهذا الزواج هذه رغبة أختها التي تحبها كثيرا، وقد أعطت رأيها في موقف ضعف، تلاشت

أمنياتها ودرجت مع الرياح.

جلست الأختان على أريكة في حديقة المنزل وقالت صفاء:

- اسمعي يا إلهام الأيام تمر سريعة على ولا تحسين أنها تكبر بسرعة بعكس الشاب، في يوم وليلة تصبح غير مرغوبة في الزواج، لا تعاندي اسمعي كلمتي وخبرتي في الحياة، أمنا أجنبية وتفوتها هذه المواضيع. أنت جميلة ياإلهام وهناك من هي أجمل منك لا ينقطع الجمال أبدا، الزهور تتكاثر كل يوم بكل ألوانها وتذبل بسرعة، والنساء مثل الزهور سرعان مايذبلن بعدسنوات في الحياة

قالت إلهام:

- لم أشعر بوجود خالد مني يوما، إنه يتجاهلني

قالت صفاء:

- لا إنه يحترمك وهو رجل عملي وحيوي وكدي في حياته، وأنت عكس ذلك ينقص الحد في حياتك وأن تنتبهي لنفسك

أعطت إلهام أختها موافقتها بعد أن اقتنعت بأرائها، دخلت غرفتها وارتدت فستانا أزرقا سماويا بلون السماء وصفت خصلات شعرها بربطة زرقاء وارتدت عقدا جميلا في رقبتها وخرجت إلى أختها صفاء ودارت حولها وهزت أكتافها بغنج. قالت صفاء:

- هذا هو الجمال يا إلهام ليتني بجمالك، لكني لا أغار من جمالك بل أتباهى به .

حضرت عائلة خالد بأكملها وبعض الأقارب والأصحاب لحضور عقد قران خالد على إلهام كان الجميع في غاية الفرح والأناقة، وقد بدت إلهام كالقمر من جمالها وأناقتها ارتدت ثوب عروس أبيض وكأنها حمامة جلس بجانبها خالد يبتسمان ويهمسان لبعض، همش خالد في أذنها وقال: أنت قمر في جمالك، قالت شكرا لك، لم تقل لي هذا الكلام سابقا، رد خالد الحياء كان يمنعني، وزعت صفاء الحلوى هي وأمها وكانتا في غاية الفرح.

بسمة حزن

في غروب حزين تكسرت الأشعة الحمراء للشمس على تلال خان التركمان، الشهيرة بأشجار الرمان. ويلقبونها أحيانا تل الرمان. تلونت تلال القرية التركمانية الهادئة باللون الأحمر. وكأن الشمس تنزف دما، لحادث ما في القرية. واكتست الأشجار بلون أسود من ظلام الليل، كأن حزنا أخذ يقرع أجراسه في القرية، كانت زوجة أحمد ألتركماني، تتولد وتعسرت ولادتها .يرافقنها ثلاث قابلات كبيرات بالعمر، يشددن أزرها. انبلج الصباح وقد ولدت زوجة أحمد طفلة جميلة كالقمر، كانت ولادة عسيرة، رفع الجميع أكفهم للسماء يدعون ربهم بالفرج لهذه الولود المعسرة، احتضنت الأم ابنتها، وهي البنت الثالثة. بعد أربعة أولاد.. قبلت الأم الولود الطفلة الجميلة. وقالت:

- هذه بسمة لقد ابتسمت لي..

ولفتها بلفافة الأطفال، وهي تقبلها والدموع تنهمر من عينيها كالنهر، حتى فاض الدمع على نحر الطفلة الجميلة، كانت البنت لا تنقطع عن البكاء،بكاء حزين، وتتجاوب عيون الأم بدموع سخية حفرت مأقيها، سلمت الأم روحها لبارئها وعيناها تتبعان الطفلة المولودة، يوم محزن خيم على أهل قرية خان التركمان، خرج الجميع في جنازة مهيبة لتوديع المراة الطاهرة.

حمل الأب الطفلة وسلمها لعمتها، كي ترضعها حتى تكبر، بعد سنتين أحضر الأب بسمة لتعيش مع أخوتها .

رفض الأب الزواج وبقي أبا حنونا وأما رؤوما لأبنائه، رغم قساوته وشدته وخشونته.. فقد كان عطوفا حنونا مع أولاده، لكنه شديد القسوة خشنا قوي البنية، كان يفرض هيبته واحترامه على الجميع، اصطحبني مرة معه إلى السوق، لنشتري بعض أغراض البيت وكنت خجولة،

أمشي وأنا مطأطئة الرأس، وبغفلة صفعني كفا قويا.. فوجئت بالكف نظر إلي بعينين حادتين وقال لي:

- ارفعي رأسك عندما تمشين. لا شيء فيك مخجل.. من يومها تعلمت منه درسا لن أنساه، أن أبقى مرفوعة الرأس، عزيزة النفس، وتعلمت منه أن القسوة تجعلك قويا أمام مصاعب الحياة.

ترعرعت بسمة في أسرتها يشع جمالها على الجميع تضفي الفرحة على وجوه أسرتها..

تذهب إلى مدرستها تقفز قفزات الأرنب، تشد محفظتها على ظهرها، وتتراقص معها جديلتان ذهبيتان، تصلان رقبتها، تبتسم عن فم كخاتم من ذهب، تتورد وجنتاها وتحمر مع شدة البرد، كتفاحتين جميلتين..

تركت المدرسة في نهاية المرحلة الابتدائية. حيث لا توجد مدرسة أعلى في خان التركمان. القرية الصغيرة الهادئة، وكان ذلك من حظ الآباء يخرج البنات مع آبائهم في حقول الزراعة، وفي البساتين.

في الثانية عشرة من عمرها أحبت ابن عمها غانم، فقد دب الحب في قلبها مبكرا.. وابن عمها غانم الذي يكبرها بسنوات. كان يراقبها كلما حضر قادما من المدينة في أيام العطل، نما حب كبير وصامت بينهما.. تراودهما الأحلام والآمال الجميلة.. دخلت الفتاة مرحلة النضوج.. وفوجئت بسفر ابن عمها إلى ألمانيا لتكملة دراستة، أراد والده أن يتعلم في ألمانيا.. ليدرس الطب.. تعاهدا العاشقان آن يستمرا في حبهما.. ولن يترك غانم ابنة عمه .

أعلن الأب وأخوه خطوبة غانم على بسمة، واكتفى الأبوان بإعلان الخطوبة من غير كتابة الكتاب، حتى عودة غانم. ليأخذ بسمة معه بعد أن يستقر وضعه وينجح في دراسته في السنوات الأولى.. كانت بسمة على اتصال مع خطيبها غانم عبر الرسائل الورقية، تعطي الرسالة لابن عمها الصغير ويرسلها لأخيه في بريد المدينة، وبين الرسالة والرسالة

شهور. تنضج فيها القلوب وتحترق المشاعر.. وتتأجج ألأحاسيس، يدفعها الأمل بعودة غانم ليأخذها معه، لتلبس الثوب الأبيض وتضع يدها في يده ليحملها بين يديه.. يوقظها نسيم السحر تفرك عينيها.. وتلم شعرها الذهبي وتنهض نشيطة لتصلي صلاة الفجر.. وترفع يديها بالدعاء وكعادتها بعد الصلاة.. تقوم بتجهيز الإفطار لوالدها وإحضار الشاي.. يفطر الوالد ويشرب الشاي ويخرج إلى حقله وقد بدأت الشمس. تمد خيوطها الذهبية.. ليستيقظ الجميع، تهرع بسمة لتقدم العلف للبقرات الشامية الحلوبة.. لا تزال الأفكار تهاجم مخيلتها في اليقظة والمنام، وكثيرا ما تتراجع في أفكارها.. وتحدث نفسها.

لمن أترك أبي؟ هذا الأب الحنون الشفوق لقد اعتاد على يدي، من يغسل رجليه ؟ ومن يدعكها له عند التعب؟.. كانت تشعر بحنان أبيها يسري في دمها.. استمرت بسمة في إرسال الرسائل ثلاث سنوات.. توفي عمها ودب الخلاف بين أبيها وزوجة عمها، واشتعل الخلاف، وراحت زوجة عمها تخفي الرسائل، وانقطعت الأخبار من ابن عمها.. وبقيت سنتين تنتظر ولا مجيب. انزعج أبوها من ابن أخيه وأمه، ونادى ابنته:

- بسمة..بسمة
- نعم يا أبي
- اسمعي ابنتي العزيزة: هذا قاسم من أقاربنا، شاب ونشيط في العمل كلمني أبوه. وقد طلب يدك لا بنه.. وردتني أخبار أن ابن عمك غانم قد تزوج المانية. ولن يرجع إلى البلاد.. اقطعي الأمل منه يا ابنتي. وأنت جميلة. كل شباب القرية يتمنون الزواج منك، أشارت برأسها
- مثل ما تريد يا أبي، أنا طوع أمرك.. لا أعصي لك أمرا
- بارك الله بك يا ابنتي

مضت من أمامه ودلفت نفسها إلى غرفتها وبكت بكاء حارا.

تزوجت بسمة رجلا في الثلاثين من عمره.. تبدو عليه الخشونة والقساوة كث الشاربين ذو لحية متوسطة، معتدل الظهر، صلب العظم، لكنه جاهل أمي، يغطي جهله بعضلاته وخشونة صوته، أحبها زوجها رغم قساوته، وكانا أحيانا كقطبين متنافرين، لقوة شخصيتها. كان يعمل سائقا لسيارة كبيرة تنقل الحجارة والتراب والحصى.. أنجبت منه ولدين، بلغ الكبير الحادية عشرة من عمره، والأصغر تسع سنوات، تقول بسمة:

- بعد عشر سنوات حضر ابن عمي غانم من ألمانيا يصطحب زوجته الألمانية، ذهبت لزيارة أخته وجدته هناك، أصفر وجهه وامتقع لونه، صددت عنه وهممت بالرجوع فأمسكتني أخته، وقالت لي اسمعي منه، قلت له:
- لماذا غدرت بي يا غانم وأنت ابن عمي؟

نظر إلي بعينين منكسرتين وأقسم بالله وقال:

- لقد انقطعت رسائلك عني، لم تصلني أي رسالة منك، وعندما سألتهم عنك قالوا لي: إنها لم تعد ترغب بك، وقد تزوجت قطعت الأمل منك وتزوجت، هذا ما جرى، عرفت فيما بعد أن أمي كانت تمزق رسائلنا، بكينا بكاء الأطفال ثم سلمت على زوجته وقبلتها، وقبلت أولاده، وقلت له: أنت أخي الآن ،وأتمنى لك كل خير .

أراد زوجي يوما اصطحاب ولديه معه للعمل فرحا بهما، كان الصغير وراء السيارة ولم ينتبه له. رجع في سيارته للوراء فدهس ابنه الصغير كان الحادث صعبا علينا جميع ، أصيب الجميع بالصدمة.. فقدت ذاكرتي عاما كاملا.. وتغيرت حياة زوجي، أصبح حزينا صامتا معظم وقته. بعد سنتين، قررت الإنجاب، أنجبت ولدين وابنة جميلة، أضفت على حياتي بسمة أخرى، تغيرت حال زوجي فقد تزوج امراة أخرى، وأصبح عصبيا لا يطاق، كان من الصعب أن أعيش معه، طلبت منه الطلاق

فطلقني، كان علي أن أربي أولادي، عملت كوافيرة، وصالون تجميل، تحسنت أحوالي المادية، كنت أعاني من نظرات الرجال، كأنهم ذئاب تستهويهم المطلقة، كلهم يتمنى أن تقع المطلقة بين يديه، وحديث المجالس عن المطلقات والأرامل، يتسلون في ذكرهن وإحصائهن، كلما غضب رجل من زوجته هددها بالزواج من بسمة، وكأن بسمة تقبل بهم، بعد ثلاث سنوات، طلب زوجي الرجوع، فكرت في الأمر أن تعيش المراة في ظل رجل أفضل من أن ينعتها الناس بالمطلقة ورجعت إليه، ولكني بقيت حرة النفس. عزيزة اعيش من عمل يدي، وأصرف على أولادي، وإذا شعرت بالأنين أعرف أن أنيني لا يسمعه إلا الله، وعفيفة النفس، تربيت على يد والد كبير في قامته ومقامه، على يد أعظم أب طيب الله ثراه ...

أريد الزواج

وقف أمام المرآة ونظر إلى نفسه كالمعتاد، وهو يسرح شعره الذي راح يزعجه ولم يبقَ منه إلا خصلات قليلة، يهتم بتسريحها وترتيبها، جذب انتباهه هذه المرة الشيب وكثرته في رأسه، كأنه يراه لأول مرة. شعر بالخوف وخاطب نفسه:

- كبرت يا علاء، فقد غزا الشيب معظم رأسك.. يجب أن تستدرك نفسك وتتزوج؟ خاطبته نفسه:

- من هي المرأة التي ستقبل بك الآن يا علاء ؟..

نظر إلى المرآة وقال:

- أيقال هذا الكلام لي؟! ما الذي ينقصني؟ وظيفة مرموقة،.. ومحامٍ كبير، ولي مكانتي في المجتمع، وأملك المال الكافي.. وسامة وشكل جذاب.!!

- لكنك يا علاء أنت في الخامسة والأربعين من عمرك.. والأيام التي مضت لن تعود، ألا تنظر إلى نفسك في المرآة؟!. انظر إلى تجاعيد وجهك!..

شعر علاء بالحزن يغشي نفسه وشعر بالاضطراب، كان يهم بالخروج، فك ربطة عنقه ورماها على مقعد بجانب سريره ثم ألقى بجسده على الفراش وقد اكفهر شكله.. وضع يده على جبينه وأغمض عينيه واستسلم لتيارات التفكير التي راحت تتجاذبه من كل مكان. كأنه وسط البحر تتقاذفه الأمواج، وراح يكلم نفسه:

- الوحدة تقتلك يا علاء.. لا بد من الزواج.. كل من عرفتهم قد تزوجوا، من الرجال أو النساء. تذكر أيام شبابه.. آه من أول امرأة عرفتها، لا زالت تطرق خيالي، إنها أريج، هي اسم على مسمى، كانت كالبدر بل أجمل منه تأسرك من النظرة الأولى، بهرني طولها وخداها الورديان، آية في الجمال.. جاءتني تطلب الطلاق من زوجها.. قلت في نفسي: أي زوج

غبي يطلقك يا أريج ، سأسعى بطلاقك بكل طاقتي ، سأغوص في ثغرات القانون حتى أجد المخرج. لأتزوجك، أخذت دعواها متلهفا.. ثلاث سنوات والدعوى مستمرة. وقد تأصلت علاقتي بأريج، ووعدتني بالزواج بعد الطلاق.. لقد أمضيت معها أحلى ساعات العمر قبل طلاقها، عملت المستحيل حتى حصلت على الطلاق، وكلي أمل بالزواج.. وبعد الطلاق تزوجت وتركتني.. ضحكت أريج على المحامي.. حتى أتعابي لم آخذها كانت أريج مثل حلم جميل، استيقظت لأجد نفسي في بحر من الحزن، متأسفا على حبها. اعتذرت لي بأنها مجبرة على الزواج تنفيذا لرغبة والديها وأخوتها. لم أكن صادقا في حبي حتى أتهمها بالخيانة.

كان المشروب عزائي الوحيد.. وفقدت قيمتي بين أهلي وأصحابي لشدة استهتاري، وخروجي على قيم أهلي وأسرتي. عرضت علي والدتي الزواج من ناهد ابنة خالي. وافقت استمرت علاقة الخطوبة ثلاث سنوات وأنا أؤجل الزواج، أخيرا تركتني.. شاهدتها منذ أيام في بيت أهلها ومعها ثلاثة أولاد وبنت واحدة.. اختلست النظرات إليها إنها جميلة بل رائعة.. لم أشاهد جمالها أثناء الخطوبة.. يا حسرة على نفسي.. هؤلاء الأولاد كان من الممكن أن يكونوا أولادي. أحسست أنها تشمت بي، صاحت على ابنها وقالت له:

- سلم على عمك، ثم التفتت نحوي
- هذا ابني الكبير، وهذه ابنتي.. يأخذان الدرجة الأولى في المدرسة
- ما شاء الله أذكياء. بارك الله بهم، وحفظهم من كل سوء .
- نعم إنهما مثل أمهما..

ثم أردفت:

- ألم تجد ابنة الحلال بعد يا علاء؟!.

شعرت بأسلوب الاستهزاء. لكني لا أضمر لها الحقد أو الكراهية، لأني تركتها عندما كانت أمامي. ولم أحس بأهميتها إلا بعد زواجها. نام علاء بعدها منكبا على بطنه والحسرات تنهش عقله الضائع .

اقترب شهر رمضان وحركة غير عادية للناس في الطرقات والبيوت، وترتسم على وجوهم بسمة إيمانية، وهم يهنئون بعضهم بعضا.شعور غريب من الإيمان يغمر الناس عند حلول رمضان .

كان علاء يراقب رمضان كل عام ويشعر بنفس الشعور إلا أن رمضان لا يمره أبدا، لا يصوم مع الناس، وإن حرم نفسه من الطعام.. لكنه مستمر بلهوه ومجونه واستهتاره.. رمضان عند علاء له نكهة خاصة، فيه السهرات الحلوة التي يقضيها مع أصدقائه في المتعة والسرور. في كل رمضان تنهال عليه نصائح أبيه، قال له أبوه قبل عشر سنوات:

- يا علاء حياتك الصاخبة لن تنتهي إلا بالزواج، اسمع مني ودعني أزوجك،لتكون أسرة لنفسك وتكن مثل أخوتك، وتترك المعاصي وتقترب من الله.. يعز علي يا بني أن أرى مركبك يغرق ولا أقدم لك المساعدة. سأغضب عليك إن لم تطع أمري.. اتجه إلى الله.. هذا شهر رمضان، شهر الفضيلة والتوبة.. تب ودعني أزوجك على العيد إن شاء الله.. لن أدوم لك وستقلب لك الحياة مجنها في يوم من الأيام.

وردت والدته قائلة:

- دعه يا أبا صالح، لقد نصحته قبلك ولكن الشيطان قد تمكن منه اللهم لا تؤاخذنا بعمل ولدنا وعصيانه لك .

لكن علاء أغلق أذنيه لكل نداء، بل أغلق قلبه لكل محاولة من والده أو والدته، كل رمضان يشعر علاء بنداء خفي في قلبه ويتذكر والديه، وموقفهما المشهود .

هذه المرة اختلف الشعور عند علاء ينتظر رمضان بفارغ الصبر يشعر بشيء يدخل صدره فينفتح الصدر ليرى أباه يقف بجانبه ويمسح صدره، وأمه تبتسم وتمد يدها له.. فتح عينيه ليضم والديه.. لكنه الحلم.. الحلم، لقد مضت عشر سنوات على وفاة والده، وخمس سنوات على وفاة والدته.. ولم ينس ذكرى والديه.. رغم سنوات عمره يشعر أنه كالطفل الصغير الذي يحتاج إلى جناح والديه .خرج إلى الأسواق وراح يرقب حركة الناس وهم يحملون الطعام،والخضروات والتمر وكل متطلبات الشهر الكريم.. كم تمنى لو أنه صاحب عائلة فيحمل لزوجته وأولاده مثلمايحملون..خاطبنفسه..مضىبكالعمرالآنياعلاء،أضعت سنوات عمرك بالعصيان وحماقات الشباب.. لم تستمع لرأي والديك، وها أنت تدفع ثمن عنادك، وحياتك المستهترة .

عاد إلى بيته، رمى نفسه على الأريكة وقد شعر بتعب جسدي، ولكنه يشعر بنداء سماوي يناديه.. يرى أمامه صورة أبيه وهو يتوضأ ويصلي، عندما يسمع وهو صغير صوت والده في الصلاة والدعاء، كان يتمنى أن يبقى ذلك الصوت مستمرا .

راح يناجي نفسه:

- ما سر هذا الشعور الإيماني الذي يغشاني؟ أشعر بنور يضيء صدري، إلى متى تبقى عاصيا لربك يا علاء؟!.. سمع صوت الأذان من المسجد القريب من بيته.. أحس كأنه يسمعه أول مرة راحت الكلمات تدوي في قلبه، الله أكبر الله أكبر.. أشهد أن لا إله إلا الله.. أشهد أن محمدا رسول الله..

توضأ مثلما كان يتوضأ أبوه، دخل المسجد.. وشعر بخشوع كبير، تبدل طرأ على نفسه وجد المصلين يهنئون أنفسهم فقد تأكد أن يوم غد غرة رمضان.. صلى مع المصلين صلاة التراويح وعد انتهاء الصلاة تناول مصحفا وصار يقرأ قرأ من سورة القصص كانت الآيات الكريمة تغسل

قلبه وتمتزج دموع القلب مع دموع الندم من عينيه.. وبعد انتهاء السورة رفع يديه وقال اللهم مالك الملك لقد تبت إليك عبدك العاصي جاء يرجوك لتقبل توبتي، ربي لا تردني خائبا منكسرا.. ما خاب من رجاك يا أرحم الراحمين.. سجد لربه وخرج من المسجد وهو يشعر بخشوع كبير ونفسية قد تغيرت.. جر قدميه بتثاقل لم يرفع رأسه خجلا من أعماله الماضية.. وصل البيت فوجد أخوته في المنزل سلم عليهم وردوا السلام، سأله أخوه الكبير:

- ما بك يا علاء؟ هل تشكو من شيء؟! أين كنت؟ وترادفت الأسئلة من الجميع ...
- لا شيء يا أخوتي كنت في المسجد، ذهبت أطلب الغفران من ربي.. لقد ندمت على كل ما ارتكبت ..

شعر الجميع بالفرح، اقترب أخوه الكبير وراح يقبله ويضمه قائلا:

- مبروك يا علاء على الطاعة والإيمان.. عدت إلى أسرتك عدت إلى أمك وأبيك.. إنها فرحة كبيرة

انسابت الدموع من عيون الجميع وهم يقبلون علاء ويباركون له إيمانه.

- اسمعوا يا أخوتي مللت من الوحدة، أريد زوجة.. أريد أسرة، أريد أن أكون مثل بقية البشر، أكمل نصف ديني، وأشعر بمسؤوليتي .

قالت أخته نازك:

- قل لنا من تريد ونحن نخلصها لك؟.. أنت سيد الشباب يا علاء، نحن تحت أمرك يا أخي .
- الرأي رأيكم أريد ابنة الحلال ذات الأصل والدين ذات الخلق والعقل، لقد عقلت يا نازك أريد فتاة حسب رغبة والدتي رحمها الله، ورغبة والدي طيب الله ثراه.. نزلت من عينيه دمعة ساخنة،

متأسفا على حياته الصاخبة، أبوه عرف بالتقوى والورع في المدينة..

قال له أخوه الكبير:

- سنزوجك يا علاء هذه فرحة العمر، سيفرح الوالدان وهما في قبرهما من اليوم سنفتش جميعا عن عروس جميلة تليق بعلاء . سنقيم احتفالا كبيرا بهذه المناسبة، وسأدعو إليها جميع الأقارب والعائلة، سيكون عرسا لا مثيل له في البلد بإذن الله .

قالت نازك:

- اتركوا لنا فرصة نهيئ فيها أنفسنا، لنفصل الثياب ولنعد أنفسنا لهذه المناسبة العزيزة

ابتسم علاء ابتسامة بسيطة وهز رأسه لكن قلبه كان متعلقا بشيء أسمى يحس به داخل نفسه. اتفق الجميع على العرس في اليوم الثالث للعيد.. أما علاء فقد انهمك في العبادة وقراءة القرآن واعتكف العشر الأواخر من رمضان. لقد تعلق قلبه بالله. ولم يعد يتكلم إلا بكلمات إيمانية كأنها النور.. تعجب الجميع من توبة علاء.. وخافوا عليه لأنه أجهد نفسه وكثر بكاؤه وخشوعه.. أصبح علاء شخصية ثانية لاتمت إلى شخصيته الأولى بصلة.

استيقظ على صوت المؤذن وهو يؤذن لصلاة العيد بكر بالصلاة.. وصلى الصبح ثم انتظر صلاة العيد راح يستمع لتكبيرات المصلين: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا لأول مرة يشعر بالفرح مع المصلين، أحس بحلاوة العيد مثل شعور الأطفال.. تمنى لو أن له أولادا فيقبلهم ويعطيهم العيديات، خرج من المنزل ووزع العيديات على الأطفال الفقراء خارج المسجد .

أقام أخوته خيمة كبيرة منذ اليوم الأول للعيد يستقبلون فيها المهنئين والزوار والمباركين بزواج علاء.. وقد أرسل الأخ الأكبر دعوات

للأعمام في الحسكة، والقامشلي وإلى الأخوال في عامودا، ورأس العين وقد أقيم فرح كبير حضره جميع المدعوين.. كان موعد الزفاف في اليوم الثالث للعيد.. وفي صباح اليوم الثاني للعيد، شعر علاء بآلا م حادة في صدره.. وأحس بأنفاسه تضيق.. أراد أخوته نقله للمستشفى لكنه رفض وقال بصوت متهدج ألا ترون أبي وأمي إنهما أمامي؟ يلبسان البياض.. وابتسم ابتسامة جميلة ملأت وجهه احمرارا، رام الجميع بنظراته، وتأملهم فردا فردا، طلب منه السماح ورفع سبابته اليمنى لينطق بالشهادة انطفأ الضوء وخيم الظلام على الجميع واختلط الصياح بالتهليل والتكبير تراكض الجميع نحو الضوء ولكن الضوء انطفأ انطفاءة أبدية .

كانت الجنازة ضخمة لم تشهد مدينة الحسكة مثلها، وقد غص المسجد بالمصلين على جنازته وهم بين باك وحزين، ومتحسر.. قال أحدهم هذه الدنيا لا تدوم لأحد، وحدوا الله.. الفاتحة على روح المرحوم. ودعا له الجميع بالرحمة والغفران .

الأم العظيمة

قلت له:

- حدثني عن تجربتك غي الحياة..
- حسنا، هل أبدا من النهاية أم من البداية؟ ولكن هذا لايهم، لأن النتيجة واحدة. ارتبطت بأمي ارتباطا وثيقا، كانت روحي في الحياة ولا زالت، حفظها الله وأبقاها.. فتحت عيني على الدنيا وأنا أكره أبي، بل أمقته، كم كنت أتمنى لو كنت كبيرا فأوقفه عند حده، جرح طفولتي، ونما الجرح مع الكبر، كان يضرب أمي بسبب وبلا سبب، يريد إثبات رجولته أمام المرأة، لم يحترم مشاعرنا.. لم يقدر حب الطفل لأمه.. ازداد تعلقي بأمي كلما ازدادت شراسة أبي، وتعلقت أمي بنا .

تحملت الإهانة من أجل ولدين وبنت واحدة.. لم يكتف بذلك فطلقها وعمري عشر سنوات وتركنا دون معيل، وتزوج امرأة ثانية أصبح عبدا لها، لم تكن أجمل من أمي ولا أفضل منها..

راحت أمي تعمل بالحقول فلاحة لتقدم المساعدة لنا، وكان عندها بقرة واحدة تطعمنا من حليبها، وتبيع الباقي.. أصرت أن نكمل دراستنا، طلبت منها أن أترك المدرسة وأعمل في الحقول لأساعدها ولكنها لم توافق، وصممت على إكمال دراستي.. ورفضت الزواج وقد تقدم لها الكثير من الرجال، وكانت على جانب كبير من الجمال، وصاحبة أخلاق عالية، ولكنها أبت إلا خدمة أولادها.. لم أر أمي يوما تقف أمام المرآة لتزين نفسها، لم ترتد الثياب الجميلة.. فهمت ذلك بعد أن كبرت..لا تريد أن ينظر إليها الرجال ومن في نفسه طمع.. طاهرة طهارة الملائكة. وتكبر في عيني كل امرأة تعتز بشرفها وطهارتها ...

بعد نجاحي في المدرسة الإعدادية انتقلت إلى مدينة الميادين، استأجرت غرفة صغيرة.. حيث التحق أخوتي بعدي للدراسة في المدينة.. كانت

أمنا أقوى من الرجال، تقدم لنا بسخاء وعطاء دون كلل أو ملل، لم تشتك يوما ولم تذرف دمعة، البسمة دائما بادية على محياها، تعتز بنا وتقول:

- هؤلاء كنزي من الدنيا لا أريد شيئا آخر في الحياة..

درست الثانوية ونجحت فيها بتفوق. ثم التحقت بمعهد المعلمين، وبعد عامين أصبحت معلما في مدينة الميادين، لم تستطع أمي أن تخفي فرحها وسعادتها بعد تخرجي وتعييني، لأول مرة رأيت أمي بثياب جميلة، رأيت أمي وهي تهتم بمظهرها فبدت في أحلى هيئة، وقلت لها مازحا:

- يا أم أشرف رجعت عشر سنوات إلى الوراء، أنت في عز الشباب. سيتقدم إليك العرسان!!. ابتسمت ابتسامة عريضة ونظرت إلي، ووضعت يدها في يدي، ومشت بي داخل الغرفة وقالت:

- جاء الزمن الذي أفرح به، أنتم الأمل الذي ينير حياتي.من خلالكم أرى سعادتي. تركت الدنيا من أجلكم. ألا يحق لي الآن أن أفرح بكم؟!

- اسمع يا أشرف أريد أن أفرح بك فرحتين، هل توافقني؟

- قلت وهل أرفض طلبا لأمي ؟!

- أريد أن أزوجك وأحتفل بنجاحك.. أريد أن أقيم حفلا كبيرا.. أدعو إليه القاصي والداني، الصديق والعدو.. ليرى العالم ثمرة أم أشرف وليعرف الناس قدركم يا بني!

أردت أن أعارض أمي في الزواج، لأني كنت مشتت الأفكار من ناحية الزواج، إذ أبعدت الفكرة عن دماغي، ولم أفكر بامرأة أثناء دراستي. وإن كنت أختلس النظرات إلى ريما ابنة جيراننا.. كلما رأيتها تمر في الشارع، بل أجعل وقت خروجي إلى المدرسة مع توقيت خروجها، لأنعم بنظرة أو ابتسامة جميلة، لم تكن تبخل علي بهما.. شعرت أنها قريبة من قلبي، لكن آه لقلب حرمته من الإحساس والعواطف. أحسست أنها تنتظر كلمة مني، أو إشارة صغيرة، ولكن عيني ترتد إلى الأرض إذا ما فاجأتني بنظرة ساحرة. لم أتجرأ بكلمة معها، بادرتني مرة بالسلام، فارتبكت وشعرت بالدماء تنزف من عروقي، وتلعثمت في الرد، واصطكت قدماي، ابتسمت لي ومضت، ولا أعرف إن كانت سمعت رد

سلامي الخافت. وكل يوم أنعم منها بسلام يثلج الصدر ويفتح النفس.. أصبح سلامها زادا لروحي.. وفهمت يومها، أني بحاجة إلى نصف يكملني!، رحلت ريم وتزوجت بسرعة، يومها بكيت بصمت، وشعرت بالحزن وحدي.. كنت عاجزا في مواجهة نفسي .
وعرفت بعدها أن الحب يرحل عندما تموت الكلمـة، وأن النحـلة ترحل إذ لم تجد في الزهور رحيقا. سلبت نظراتي، وسلبت قلبي، وأخذت أول حب في حياتي. هل تلوميني في ذلك يا صديقي؟

- لا كنت في موقف صعب، وظروفك لا تسمح لك، وأن تقدم لأمك ثمرة جهدها، والحب غريب عليك في هذا الطور .
- سميت أول ابنة لي ريما، كم هي جميلة!، أحس بجمال الدنيا.. عندما تكون إلى جانبي..

لا أحد يعرف السبب في اختيار الاسم، لكنه يذكرني بأول بسمة حب في حياتي.. أقامت أمي خيمة كبيرة استقبلت الزوار والأقارب، أقامت حفلا كبيرا لمدة أسبوع.. تصوري لم يحضر أبي الحفل.. ولم يبارك لنا.. ربما كان خجلا لقد حرمنا حتى من الميراث.. سجل أغلب أملاكه باسم زوجته وأولاده.. وحرمنا من حق شرعه الله لنا..
- هكذا زوجتني من ابنة خالتي، كانت زوجتي على جانب كبير من الأدب والحشمة والخلق، ثقافتها في المرحلة المتوسطة.. هادئة الطباع، يزينها المرح والشقاوة أحيانا، أحببت أن أترك لديها بصمة جميلة تتذكرني من خلالها. أعطيتها الحب والوفاء، وهذا أقل ما أعطيه لأمي مع الزمن كانت وفاء خير معين لأمي، وقفت معها في كبرها وضعفها، وأدركت سر اختيار أمي لها. فعاملتها أحسن معاملة. وقد رزقني الله منها بأربعة أطفال.
ولم تقصر من ناحيتي أبدا نعم الزوجة المطيعة حنان، لن أنسى حبها أبدا ولن أغدر بها مهما طال الزمن.. أكن لها كل احترام وتقدير. صممت أن لا أغيضها في يوم من الأيام .

زوج غاضب

راح يصرخ أشبه بهستريا، انت زوجة غير صالحة، انظري إلى نفسك وهيئتك، لقد تحملتك كثيرا، ألا تغيرين تسريحة شعرك، ألا تغيرين هذا الثوب، انفجر بكلمات كانها الصخر من قساوتها ردت له بابتسامة عريضة تحمل ألف سؤال، معروفة هي بأناقتها وجمالها البسيط وأخلاقها التي تجملها في كل مكان، وقالت حاضر يا أبا باسم، لكنه لم يسكت وقف الأولاد مندهشين من ثورة أبيهم التي لم يفهموا لها سببا، حزنوا لأمهم وسكت الجميع. شعر بالخجل وارتبك وهو يشاهد نظرات أولاده تلاحقه بعتاب. لم يتمالك نفسه جر قدميه متثاقلا...

تقدمت منه زوجته وقالت له استرح واجلس يا أبا باسم لا تزعج نفسك، أزاحت خصلة شعرها عن جبينها فقد تدلت كثيرا، ربما كانت تريد أن تجهش بالبكاء، مسحت خديها فقد فاضت الدمعات على الوجنتين الورديتين، واصطنعت ابتسامة من القهر ولكنه أزاح وجهه عنها وراح يمشي باتجاه الباب. ركب سيارته وترك لها العنان دخل في الشارع الرئيسي للمدينة، ثم عرج إلى شا ع الستين ومضى فيه يسرح بخيال وأوهام، وخز الضمير يلاحقه، هاهو خارج المدينة وقف في استراحة على الطريق، طلب قهوة من النادل وراح يدخن بشراهة وراح يفكر كيف يصلح وضعه؟. من الصعب أن تعيد الانكسار.

الفهرست

الكاتب في سطور.....٣
ولدي الشهيد مروان.....٤
إهداء.....٥
المقدمة.....٦
الخطيئة.....٧
وسرقت عمري سماح.....٢٠
صرخة في الأعماق.....٣٩
شيء من الماضي.....٤٣
حوار الطرشان(١).....٥٠
حوار الطرشان(٢).....٧١
آه يا زمن.....٧٩
أمنيات لم تتم.....٨٥
أبحث عن ولدي.....٩٥
حلم لم يتحقق.....١٠٠
امرأة من الوهم.....١٠١
الطلاق الصامت.....١٠٢
قطة من ذهب.....١٠٤
بسمة حزن.....١٠٨
أريد الزواج.....١١٣
الأم العظيمة.....١٢٠
زوج غاضب.....١٢٣